الأدب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني

الجزء الأول

الأستاذ الدكتور
نبيل خالد أبو علي

الجامعة الإسلامية – غزة
2007م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

دار المقداد للطباعة
غزة – م الشاطئ ت : 2821358

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

الحياة العامة للعصر المملوكي

أولاً : الحياة السياسية :

يعود وجود المماليك في العالم الإسلامي إلى عصر الخليفة العباسي المأمون([1]) ، وذلك حينما أهدى إليه أسيره نوح بن أسد الساماني المملوك التركي طولون مع مجموعة من الرقيق سنة 200 هجرية ، حيث اتضح تأثيرهم في الحياة السياسية حينما تمكن أحمد بن طولون من الوصول إلى سدة الحكم وتأسيس الدولة الطولونية في مصر سنة 254 هجرية ، وقد اعتمد ابن طولون على المماليك في تدعيم أركان دولته ، إذ بلغ عددهم أربعاً وعشرين ألف غلام تركي ، وأربعين ألفاً من السود ، وسبعة آلاف من الأحرار المرتزقة([2]) .

ولما أسس محمد بن طغج الإخشيد الدولة الإخشيدية([3]) ، جعل جُلّ جيشه من الأتراك المماليك ، حيث بلغ عدد المماليك في جيشه وحرسه الخاص حوالي أربعمائة وثمانية آلاف مملوك([4]) .

وقد ازداد الاعتماد على المماليك في أواخر العصر الفاطمي ، وأصبحت كلمتهم مسموعة عند الخلفاء الفاطميين المتأخرين ، كما برز

([1]) هو عبد الله أبو العباس بن الرشيد ، ولد سنة 170 هجرية ، وتولى الخلافة سنة 198 ، وتوفي سنة 218 هجرية ، استقل بالأمر بعد قتل أخيه سنة 198 هجرية وهو بخرسان . للاستزادة راجع : الحافظ جلال الدين السيوطي : تاريخ الخلفاء ، طبعة دار الفكر العربي ، بيروت (بدون تاريخ) ، ص 284 – 291 .

([2]) انظر : حسن علي إبراهيم : دراسات في تاريخ المماليك البحرية ، طبعة مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1967م ، ص21 .

([3]) تولى محمد بن طغج الإخشيد الحكم سنة 323 ، وتوفي سنة 334 هجرية . تاريخ الدول الإسلامية، 86.

([4]) انظر : جمال الدين بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، 1956م ، 259/3 .

دورهم في مجريات الحياة السياسية بعد وفاة صلاح الدين الأيـوبي([1]) ، عندما تنازع ورثته على السلطة ، حيث قسّمت البلاد بين الورثة ، وسعى كل منهم إلى تدعيم سلطانه بشراء المماليك ، وتدريبهم على أساليب القتال ثم الاعتماد عليهم في الجيش ، الأمر الذي ساعد على ظهـور المماليـك كقوة حربية ذات نفوذ وتأثير في مجريات الحياة السياسية([2]) .

وهذا كله لا يعني قيام دولة شرعية مستقلة تختص بالمماليك ، إلا أن تحقق قيام مثل هذه الدولة لم يطل انتظاره ، فمـا أن يتـوفى الملـك الصالح نجم الدين أيوب ، ويقتل ابنه الملك المعظم تورانشاه علـى يـدّ مماليك أبيه حتى تدخل شجر الدر([3]) معترك الحيـاة الـسياسية ، وتبـدأ فصول التحول من الحكم الأيوبي إلى الحكم المملوكي لمصر ثـم بـاقي البلاد العربية .

([1]) كان خلفاء صلاح الدين الأيوبي يشترون المماليك صغاراً في سن الطفولة من تجار الرقيق ، ويعهدون بهم إلى مَن يعلمهم اللغة العربية ، وكتاب الله تعالى ، والتدين بآداب الشريعة ، وملازمة الصلوات والأذكار ، وفإذا شب الواحد من المماليك علمه الفقيه شيئاً من الفقه ، وأقرأه فيه مقدمة ، فإذا صار إلى سن البلـوغ أخذ في تعليمه أساليب الحرب وفنون القتال . راجع : المقريزي : الخطط ، طبعة دار الكتـب العلميـة ، بيروت 1998م ، 213/2 .

([2]) راجع : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، الطبعة الثانية ، القاهرة 1971 ، 912/2 .

([3]) وقد ذكرها بعض المؤرخين باسم "شجرة الدر" . ويرى الدكتور أحمد مختار العبادي أن هنالك خلط عنـد هؤلاء المؤرخين بين شجر الدر وجارية تركية تدعى شجرة الدر "كانت جارية للخليفة العباسي الناصـر لدين الله (1180 – 1225م) ، مقربة إليه ، وكانت تكتب خطاً جيداً وتقرأ له المطالعات الواردة عليه لمـا تغير نظره ، ويملي عليها الأجوبة ، وتوفيت سنة 1236م (634هـ) ، ودفنت في تربة الخلاطية ببغداد". قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، طبعة مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية 1988م ، 119 .

بداية حكم المماليك :

يرى كثير من المؤرخين أن قيام دولة المماليك اقترن باسم شجر الدر زوجة السلطان الأيوبي الملك الصالح نجم الدين أيوب ، التي تولت السلطة بعد وفاته ، من ذلك قول المقريزي : "إن شجرة الدر أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك ، فهي أولى سلاطين المماليك في مصر ، وذلك لأنها كانت جارية تركية الجنس اشتراها الملك الصالح أيوب ، وحظيت عنده حتى أعتقها وتزوجها .."([1]) .

وقد أخفت شجر الدر نبأ وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب عام 647 هجرية ؛ لكي لا يتفرق شمل الجند وهم يحاربون الصليبيين في المنصورة ، وأرسلت في طلب ابنه تورانشاه ـ حاكم حصن كيفا وديار بكر نيابة عن أبيه في الشام ـ كي يتسلم مقاليد الحكم ، ولكن مماليك أبيه قتلوه لسوء معاملته لهم بعد أقل من شهر من ولايته على مصر ، وذلك في السابع والعشرين من شهر محرم 648 هجرية([2]) .

وهكذا تهيأت الظروف لبقاء شجر الدر في حكم البلاد ثمانين يوماً إلى أن اعترض عليها الخليفة العباسي لأنها امرأة([3]) ، ولكي يستمر حكمها تزوجت أحد أمراء المماليك "عز الدين أيبك" الذي حكم في البداية

([1]) تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة 1939، 261/1 .

([2]) انظر : أبو شامة : ذيل الروضتين ، طبعة دار الجيل ، بيروت ، ص581 .

([3]) أرسل الخليفة المستعصم يعاتب أهل مصر بمثل قوله : "إن كان ما بقي عندكم رجل تولونه ، فقولوا لنا نرسل لكم رجلا" . جلال الدين السيوطي : حُسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1997م ، 56/2 .

باسم الأيوبيين ، إذ اشترك معه في الحكم طفل صغير من بني أيوب ، ثم بعد هزيمة الأمراء الأيوبيين القادمين من الشام لاسترداد مُلك ابن عمهم تورانشاه ، وتفريق شملهم وأُسِر الكثير منهم ، وقتل بعض قادتهم ، استقل عز الدين أيبك بالحكم([1]) .

ولم يكن الناس ولا المماليك أنفسهم ليدركوا ما يخبئه القدر لهذه الدولة الناشئة من مسئوليات جِسام ، وما ستحمله من تركة ثقيلة تتمثل في القضاء على فلول الصليبيين ، وتحطيم معاقلهم في الشرق ، وفي التصدي لزحف جيوش همجية تُعرف بالمغول أو التتار([2]) .

ففي الثاني عشر من محرم سنة 656 هجرية حاصر هولاكو خان بغداد بجيش جرار يبلغ حوالي مائتي ألف مقاتل ، وكانت جيوش بغداد في غاية الضعف والقلة ، وذلك بتدبير الوزير ابن العلقمي الرّافضي([3]) الذي دبّر على الإسلام وأهله من الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد ، وكان هو وأهله و أصحابه أول من برز للمغول ، ثم أشار على الخليفة بالخروج ، فأمعن التتار في إذلاله ، واستولوا على ما يمتلك من الأموال والجواهر ثم قتلوه ومن كان معه من العلماء والقضاة والأكابر وأولي الحل والعقد في بلاده ، ثم مالوا على أهل البلد وأمعنوا

([1]) الطفل هو الملك الأشرف مظفر الدين موسى ، وكان صبياً عمره عشرة سنوات ، وفي سنة 652 قام الملك عز الدين أيبك بخلعه والانفراد بالحكم . تاريخ ابن الوردي ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1996م ، 180/2 .

([2]) راجع : جمال الدين بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ط1 ، دار الكتب العلمية، بيروت 1992م ، 22/7 .

([3]) راجع : النجوم الزاهرة 43/7 – 48 .

في قتل جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والكهول والشبّان ، ولم يَنْج من أهل بغداد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ، ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمي([1]).

ولمّا بلغ الملك المظفر سيف الدين قطز([2]) بما فعله التتار في بغداد وبلاد الشام من جرائم ، واستعدادهم للزحف على مصر ، أعد العدة وخرج في شهر رمضان على رأس الجيش المصري وما تجمع من الجنود المسلمين الشاميين في مصر للتصدي لزحف التتار([3]) ، ونزل الغور بعين جالوت حيث جموع التتار ، وفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان حدثت المواجهة الحاسمة ، وكانت الهزيمة من نصيب التتار الذين فرّوا هاربين بعد أن قُتِل معظم قادتهم وأعيانهم ، وقُتِل مقدم العساكر التترية كَتْبُغَانُوين وأُسِر ابنه ، وكان لشجاعة قطز وحسن تخطيطه ومهارته الحربية دورٌ بارز في الانتصار([4]) . وقد تغنى الشعراء بهذا الانتصار ، من ذلك قول بعض شعراء دمشق([5]) :

([1]) تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1997م ، 1/499-500 .

([2]) قتلت شجر الدر عز الدين أيبك في أواخر ربيع الأول سنة 655 هـ ، وذلك عندما علمت بخطبته لابنة صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، وتولى الحكم بعده ابنه السلطان الملك المنصور نور الدين علي ، وذلك في الخامس عشر من شهر ربيع الأول ، وكان صغيراً في السن ، فقام بتدبير أمور الملك نائب أبيه الأمير سيف الدين قطز . ونظراً لتكاثف الأخطار على الدولة الإسلامية ، وعجز الملك المنصور عن إدارة أمور الحكم عدا عن التصدي لتلك الأخطار ، قام سيف الدين قطز بخلعه بعد سنتين وثمانية أشهر ، وتولى هو الحكم . انظر السلوك 1/493 – 507 .

([3]) استولى التتار على جميع دول المشرق الإسلامي باستثناء مصر والحجاز واليمن .

([4]) راجع : النجوم الزاهرة 7/76 . تاريخ ابن الوردي 2/200 – 201 .

([5]) النجوم الزاهرة 7/76 . وانظر : تاريخ ابن الوردي 2/201 .

هَلَكَ الكفرُ في الشام جميعاً ... واستجدّ الإسلامُ بعد دُحُوضِهْ
بالمليكِ المُظَفَّر الأرْوَعِ الإسلامِ عند نهوضِهْ
مَلِكٌ جاءَنَا بِعَزْمٍ وحَزْمٍ ... فاعتزَزْنَا بِسُمْرِه وبِيْضِهْ
أَوْجَبَ اللهُ شُكْرَ ذَاكَ عَلَيْنَا ... دائماً مِثْلَ وَاجِباتِ فُرُوضِهْ

وكذلك قول الشيخ شهاب الدين أبو شامة مشيداً بالملك المظفر سيف الدين قطز والمماليك([1]) :

غَلَبَ التتّارُ على البِلادِ فَجَاءَهُمْ ... مِن مِصْرَ تُركيٌّ يَجُودُ بنَفسِهِ
بِالشَّامِ أَهْلَكَهُمْ وبَدَّدَ شَمْلَهُمْ ... ولِكُلِّ شَيءٍ آفةٌ مِن جِنسِهِ

ولقد تتبع الأمير ركن الدين بيبرس جموع التتار الفارّة بجماعة من شجعان الجيش إلى أطراف البلاد ، وكان الجيشان قد التقيا في معركة أخرى حاسمة عند بيسان لقيت فيها فلول المغول هزيمة نكراء([2]) .

ويعد كثير من المؤرخين انتصار سيف الدين قطز على التتار في عين جالوت شهادة الميلاد الرسمية لدولة المماليك ، ويرونها الوريث الشرعي لسلطان كل من الأيوبيين والعباسيين([3]) .

حرص الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري بعد وصوله إلى الحكم([4]) على اجتثاث الإمارات الصليبية في المشرق الإسلامي ،

([1]) النجوم الزاهرة 76/7 .

([2]) السلوك 517/1 .

([3]) راجع : تاريخ ابن الوردي 203/2 .

([4]) كان قطز قد وعد بيبرس بتوليته إمارة حلب ، ثم عدل وولاّها لعلاء الدين علي بن بدر الدين لولؤ صاحب الموصل ، فتربص بيبرس مع جماعة من أمراء المماليك بالملك المظفر قطز في أواخر ذي القعدة من السنة ذاتها وهو عائد إلى مصر وقتلوه . انظر : النجوم الزاهرة 76/7 . وابن كثير : البداية والنهاية ، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح ، ط5 ، دار الحديث – القاهرة 1998م ، 251/13 .

فعقد تحالفات مع الإمبراطورية البيزنطية ، وبعض القادة الأوروبيين وعلى رأسهم الإمبراطور "مانفرد" ، وأقام علاقات ودية مع ملك قشتالة الإسباني ، ليضمن عدم حصول الصليبيين على أي دعم أو مساندة منهم([1]) .

وفي عام 664 هجرية سار الظاهر بيبرس من مصر إلى البلاد الشامية للقضاء على معاقل الصليبيين فيها ، فأغارت بعض كتائب جيشه على عكا وصور وطرابلس وحصن الأكراد ، واستولى هو على صفد وقلعتها ، وواصل طريقه حتى استولى على يافا في جمادى الآخرة سنة 665 هجرية ، وهرب من كان فيها من الفرنج إلى قلعتها ، فملك المدينة وهدم القلعة ، وواصل حملاته مروراً بالشقيف وطرابلس حتى أنطاكية التي ملكها ثم سلّمها للأمير شمس الدين آقسنقر الفارقاني .

وبينما السلطان الظاهر بيبرس في دمشق أرسل التتار رسلهم يتوعدون بالانتقام لهزيمتهم في عين جالوت ، فأجابهم بأنه في طريقه لاستخلاص كل ما استولوا عليه من العراق والجزيرة والروم والشام ، ثم واصل تقدمه إلى عكا فأسر ملكها وقتل وسبى الكثير في سنة 668 هجرية ، وفي عام 669 شن غاراته على جبلة واللاذقية والمَرْقب وعرْقه ومَرَقْية والقليعات وصافيثا والمجدل وأنطرطوس .

وفي سنة 671 هجرية علم الظاهر بيبرس أن فرقة من التتار عدتها ثلاثة آلاف فارس قصدت بعض مدن الشام – الرَّحْبَة والْبِيرة –

([1]) ابن عبد الظاهر : الرّوض الزّاهر في سيرة الملك الظاهر ، نشره عبد العزيز الخويطر ، الرياض 1976م، ص129 .

فسار بجيشه ونازلهم عند شط الفرات ، وهُزمهم شرّ هزيمة ، وقتل وأسر الكثير منهم ، ثم سار بجيشه قاصداً البيرة ، فلما بلغ التتار الخبر فروا منها ، فدخلها الظاهر بيبرس وأكرم أهلها ، وأغدق عليهم العطاء مما غنمه من التتار ، وفي هذا الانتصار قال العلاّمة شهاب الدين أبو الثناء محمود([1]) قصيدة طنانة أولها([2]) :

سِرْ حَيْثُ شِئْتَ لَكَ المُهيمنُ جَارُ — واحْكُمْ فَطَوْعُ مُرادِكَ الأقْدَارُ
لَم يَبْقَ للدِّينِ الذي أظْهَرتَه — يا رُكْنَه عِنْدَ الأعادي ثَارُ
لَمّا تَراقَصتْ الرُّءوسُ وحُرِّكَتْ — من مُطرباتِ قِسِيِّكَ الأوْتَارُ
خُضْتَ الفُراتَ بِسَابحٍ أقْصَى منىً — هُوْجُ الصَّبَا من نعلهِ آثَارُ
حَمَلَتْكَ أمْوَاجُ الفُراتِ ومَنْ رَأى — بَحْراً سِوَاكَ تُقِلُّهُ الأنهارُ
وتَقَطَّعَتْ فِرَقاً ولَم يَكُ طَودَها — إذْ ذَاكَ إلاّ جَيْشُكَ الجرّارُ
رَشَّتْ دِماؤُهمُ الصَّعِيْدَ فَلَمْ يَطِرْ — مِنهم على الجيشِ السعيدِ غُبَارُ
شَكَرَتْ مَسَاعِيكَ المَعَاقِلُ والوَرَى — والتُّرْبُ والآسَادُ والأَطيَارُ

وفي سنة 675 هجرية ورد الخبر على السلطان الظاهر بيبرس بتجمع عساكر الروم والتتار على نهر جيحان فتصدى لهم الملك الظاهر في عساكره ، وهزمهم شر هزيمة ، وقد تغنى الشعراء بهذا الانتصار ،

([1]) هو أبو الثناء شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد الحلبي الدمشقي الحنبلي ، ولد بدمشق سنة 644 هجرية ، وقد علا نجمه فس سماء الشعر والنثر ، وتدرج في ديوان الإنشاء ، عمل رئيساً لديوان الإنشاء بعد موت محيي الدين بن عبد الظاهر أكثر من عشرين سنة ، من مؤلفاته كتاب : "حسن التوسل في صناعة الترسل" ، توفي سنة 725 هجرية . انظر ترجمته في : النجوم الزاهرة 190/9 . والدرر الكامنة 198/2 - 199 .

([2]) النجوم الزاهرة 143/7 - 144 .

من ذلك قصيدة طويلة سيّارة لشهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبي مطلعها([1]) :

كَذَا فَلْتَكُنْ في اللهِ تَمْضِي العَزَائِمُ   وإلاّ فَلا تَجْفُو الجفُون الصوَّارِم

وبهذا الانتصار يكون المماليك قد وطدوا ملكهم ، وقضوا على أطماع المغول في المشرق الإسلامي ، كما أضعفوا الوجود الصليبي ، وعزلوه في حصون وإمارات متفرقة محاصرة في بعض مدن الشام([2]) .

وقد تكفل سلاطين المماليك بعد ذلك بالقضاء على تلك الإمارات الصليبية واحدة تلو الأخرى ، ففي ربيع الأول من سنة 684 هجرية استولى السلطان المنصور قلاوون على حصن المرقب الذي كان يحمي الحدود الشمالية لمملكة طرابلس الصليبية ، الأمر الذي جعل أمراء الصليبيين في الشام يسارعون إلى طلب السلام من قلاوون .

وفي سنة 686 هجرية أرسل السلطان قلاوون جيشاً إستولى على ميناء اللاذقية ، وهو أخر ما تبقى من إمارة أنطاكية التي قوضها السلطان الظاهر بيبرس من قبل .

وفي شهر ربيع الآخر سنة 688 هجرية خرج السلطان قلاوون على رأس جيش جرار وحاصر طرابلس ثم فتحها([3]) ، ثم خرج على

([1]) النجوم الزاهرة 150/7 – 153 .

([2]) توفي الظاهر بيبرس سنة 676 هجرية ، بعد أن قضى في الحكم تسع عشرة سنة . انظر : النجوم الزاهرة 156/7 .

([3]) النجوم الزاهرة 266/7 – 275 .

رأس جيشه قاصداً عكا ، ولكنه توفي في ذي القعدة من سنة 689 هجرية([1]) .

وقد سار الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون على خطى أبيه في تتبع فلول الصليبيين والقضاء على معاقلهم ، حيث أعاد تجهيز الجيش وخرج من مصر قاصداً عكا في ربيع الأول سنة 690 هجرية ، وبعد مسيرة شهر وصلها وأحكم الحصار عليها ، وكان الصليبيون قد استعدوا للدفاع عن وجودهم فيها ، فجاءت جموع الصليبيين من أوروبا وقبرص عن طريق البحر إلى عكا ، وبعد أربعة وأربعين يوماً من الحصار سقطت عكا في قبضة الجيش الإسلامي ، وتشتت شمل الصليبيين ، وهرب بعضهم عن طريق البحر ، وقُتِل الكثير منهم([2]) .

ثم تتابع سقوط بقية الحصون والإمارات الصليبية في بلاد الشام ، صور وصيدا وقلعة جبيل وعثليث ثم أنطرطوس ... وانتهى الوجود الصليبي في المشرق الإسلامي([3]) .

ومع ذلك فإن القضاء على المغول والصليبيين لم يبدد أحلامهم في السيطرة على المشرق الإسلامي ، فمثلاً في عهد المماليك البرجية([4]) زحف القائد المغولي تيمورلنك بجيشه الجرار على غرب آسيا ، فخرّب

([1]) المقريزي : السلوك 753/1 – 754 . وقد خلفه في الحكم ابنه الأشرف صلاح الدين خليل .

([2]) المقريزي : السلوك 763/1 – 765 .

([3]) انظر : السابق 765/1 وما بعدها . والنجوم الزاهرة 3/8 – 9 . بدأت الحملات الصليبية سنة 492هـ واستمرت حتى 692هـ ، حيث أجهز الأشرف خليل بن قلاوون على أخر معاقلهم في الشام .

([4]) سموا بالبرجية لأنهم كانوا يقيمون في أبراج القلعة بالقاهرة ، وحكموا من سنة 784 هـ حتى سقوط دولة المماليك سنة 923هـ . للاستزادة راجع : عبد الفتاح سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام . ط3 ، مكتبة الأنجلو المصرية 1994م ، ص393 .

تبريز ، وقتل أهلها ، وهاجم بلاد التركمان والأكراد وتوجه بعدها إلى بغداد ، ثم حلب ودمشق .. ، ثم أرسل رسالة تهديد إلى السلطان الظاهر برقوق ، فقتل برقوق الرسل وخرج على رأس جيش كبير لمواجهته ، وبينما كان تيمورلنك مشغولاً بالقتال في الهند دخل الظاهر برقوق بغداد ، وطرد الحامية المغولية منها ، وأعلن حاكم بغداد تبعيته للسلطان الظاهر برقوق في مصر([1]) ، وبعد ست سنوات تمكن تيمورلنك من السيطرة ثانية على بغداد – سنة 1399م – ، ولأن المنية لم تمهل السطان الظاهر برقوق ، فقد خرج ابنه السلطان الناصر فرج على رأس الجيش لمواجهة تيمورلنك ، وتمكن من هزيمته في دمشق ، ثم عقد تيمورلنك مع السلطان الناصر فرج اتفاقاً يقضي بإطلاق سراح أحد أقاربه من الأمراء – إطلمش – الذين أسرهم والده الظاهر برقوق ، وأن يطلق تيمورلنك ما لديه من الأسرى ويرحل عن بلاد الشام ، وبعد رحيل تيمورلنك ثم وفاته عام 804 هجرية هدأت رياح الشر التترية([2]) .

أما على صعيد الصليبيين فقد كانوا بين الفينة والأخرى ينطلقون من جزيرة قبرص ويقومون بأعمال القرصنة ، ويهاجمون مراكب المسلمين في البحر ، ففي عهد السلطان الأشرف برسباى استولوا على مركبين من مراكب المسلمين وفيهما حوالي مائة مسلم ، كما استولى ملك

([1]) للاستزادة راجع : كنز الدرر 352/8 – 353 ، 370/8 – 380 .

([2]) محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، ط1، دار الحمامي للطباعة ، 1965م ، 191/7 – 193 .

قبرص "جانوس لوزينان" على مركب للسلطان كانت محملة بهدايا مرسلة للسلطان مراد العثماني .

ولم يتأخر ردّ السلطان الأشرف برسباى ، ففي سنة 827هـ أرسل الأسطول البحري لغزو قبرص وتأديب أهلها ، وكذلك فعل في الحملة الثانية سنة 828 هجرية ، ولم يكن في نيته في الحملتين إحتلال الجزيرة ، وعندما علم برسباي بتجمع أمراء الصليبيين وجندهم في الجزيرة أرسل الحملة الثالثة سنة 829 هجرية ، التي تمكنت من تدمير "ليماسول" ميناء الجزيرة ، واستولت على عاصمتها ، وأسرت ملكها والكثير من جنوده ، وعادت بالغنائم الوافرة بعد أن أخضعت الجزيرة وأهلها لسلطان المماليك([1]) ، وقد تغنى الشعراء بهذا النصر العظيم ، من ذلك قصيدة طويلة – ثلاثة وسبعون بيتاً – أنشدها الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن الخراط بين يدي السلطان ، أولها([2]) :

بُشْراكَ يا مُلْكَ المَلِيْكِ الأَشْرَفِي بفتوحِ قُبْرسَ بالحُسَامِ المَشْرَفِي
فَتْحٌ تَفَتَّحَتْ السمواتُ العُلَى مِنْ أَجْلِهِ بالنَّصرِ واللُّطْفِ الخَفِي
واللهُ حَفَّ جنودَه بِمَلائِكٍ عَادَاتُها التَّأييدُ وهو بِها حَفِي

وإجمالاً فقد استطاع المماليك تأمين الجبهة الداخلية من ثورات البدو والعربان في مصر ، وتغلبوا على أبناء البيت الأيوبي في الشام ، كما واجهوا الأخطار الخارجية ، وقضوا على الوجود الصليبي والمغولي في المشرق الإسلامي ، وأسسوا ملكاً استمر زهاء ثلاثة قرون تبوّأت فيه

([1]) النجوم الزاهرة 104/14 – 131 .
([2]) السابق 131/14 .

مصر مكان الصدارة سياسياً وأدبياً وعلمياً وثقافياً ودينياً ، وكانت محط الأنظار ، وقلعة الأمن والأمان ، ونصير العرب والمسلمين ، في حين كانت القاهرة العاصمة الروحية للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها([1]) .

العثمانيون في الوطن العربي :

يرجع نسب العثمانيين إلى الأمير التركي عثمان بن أرطغرل زعيم الترك في بلاد الأناضول([2]) ، وهم جيل من الأجيال التركية المتشعبة من الجنس المغولي ، استطاعوا تحويل إمارتهم الحدودية الصغيرة الواقعة في وادي "قره صو" في الأناضول إلى دولة عظيمة مهيبة الجانب تتربع على عرش القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية([3])، ونبسط نفوذ الإسلام علي العديد من دول آسيا ، وتتمدد في العديد من دول أوروبا الصليبية ، وتنشر نور الإسلام فيها ، وفي إظهار مكانة العثمانيين وأثرهم في التاريخ الإسلامي نكتفي برأي محمد قطب الذي يقول : "فأما من حيث صدق الرغبة في خدمة هذا الدين ، وبذل الدماء والأموال في سبيل ذلك ، فإنا نجد فيهم من لا يقل عن مرتبة التابعين رضوان الله عليهم ، وكان جهدهم في الحقيقة امتداداً لجهد الصحابة والتابعين الذين

([1]) السلوك 479/1 .

([2]) ولد عثمان في مدينة سكود بالأناضول سنة 656هـ/1258م ، ووالده هو الأمير التركي إرطغرل بن سليمان شاه السلطان الأعظم أحد ملوك آل عثمان ... للاستزادة راجع : محمد المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، طبعة دار صادر ، بيروت (بدون تاريخ) ، 13/1 .

([3]) فتح السلطان العثماني محمد الثاني بن مراد الثاني مدينة القسطنطينية سنة 857 هـ / 1453م .

حاولوا فتح القسطنطينية أول مرة على عهد الأمويين . ويكفيهم فى ميزان الله أنهم توغلوا فى أوروبا الصليبية ما توغلوا ، وفتحوا للإسلام ما فتحوا من أراض وقلوب ، فدخل الناس فى الإسلام بعشرات الملايين . ويكفيهم فى ميزان الله أنهم حموا العالم الإسلامى من غارات الصليبيين خمسة قرون متوالية ، فلم يجرءوا أن يتجهوا مرة أخرى نحو الشرق للاستيلاء على بيت المقدس كما فعلوا أول مرة حتى زالت الدولة العثمانية من الوجود . ويكفيهم فى ميزان الله أنهم حتى وهم فى النزع قد منعوا قيام الدولة اليهودية على أرض الإسلام ، ولم يتمكن شذاذ الآفاق من التجمع لإقامة دولتهم إلا بعد أن زالت دولة الخلافة من الوجود . كما أن احترامهم للعلم ، وللعلماء من حملة هذا الدين ، مما يحسب لهم كذلك فى ميزان الله"([1]) .

ولأن موضوع كتابنا لا يتسع لتتبع المراحل التي مرت بها الدولة العثمانية ، والانجازات التي حققتها قبل وصولها لحكم العالم العربي ننتقل مباشرة إلى أحداث العام 907 هجري ، للوقوف على كيفية سيطرتهم على البلدان العربية ، ففي هذا العام أعلن إسماعيل الصفوي نفسه ملكاً على إيران ، وألغى المذهب السني ، وجعل المذهب الشيعي المذهب الرسمي لإيران ، ثم استولى على العراق وألحقها بالمذهب الشيعي ، وأرسل الدعاة إلى الأناضول لنشر مذهبه ، الأمر الذي أثار حفيظة الدولة

([1]) محمد قطب : واقعنا المعاصر ، الطبعة الأولى ، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر ، السعودية 1986م ، ص152 .

العثمانية السنية المجاورة ، وبدأت الصدامات العسكرية بين الجيش الصفوي والجيش العثماني .

وفي العام 918 للهجرة تنازل السلطان العثماني بايزيد الثاني لابنه سليم الأول ، وكان على السلطان الجديد أن يستعد لمواجهة الزحف الصفوي الشيعي ، وفي عام 920 هجري التقى الجيشان في وادي "جالديران" وانهزم الجيش الصفوي ، ودخل الجيش العثماني مدينة تبريز عاصمة الصفويين ، ثم استولى على الكثير من بلاد أرمينية الغربية ، وما بين النهرين ، وتبليس ، وديار بكر ، والرقة والموصل .

ثم استغل السلطان العثماني سليم الأول حالة الوهن التي استشرت في جسم دولة المماليك في مصر والشام ، وزحف بجيشه الجرار على الشام ، والتقى عام 922 هجري في مرج دابق قرب حلب بالجيش المملوكي ، وانهزم الجيش المملوكي بعد أن انضم قائد الجيش "خير بك" وبعض فرق الجيش للعثمانيين ، وسقط السلطان المملوكي "قنصوة الغوري" عن فرسه ميتاً من هول الخيانة والهزيمة([1]) .

وواصل الجيش العثماني تقدمه في حلب ، وحمص ، وحماة ، ودمشق ، وفلسطين ، وبعد أن بسط نفوذه على الشام توجه السلطان "سليم الأول على رأس جيشه إلى مصر ، وفي القاهرة إلتقى جيش المماليك

([1]) انظر : - نجم الدين الغزي : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، تحقيق جبرائيل جبور ، طبعة بيروت 1945م ، 295/1 . - شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن طولون الصالحي : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، وضع حواشيه خليل المنصور ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1998م ، ص 334 .

بقيادة السلطان طومان باي"([1]) ، وبعد معركة طاحنة انهزم الجيش المملوكي ، وفرّ السلطان طومان باي ، ودخل السلطان سليم الأول القاهرة سنة 923 هجرية ، وبسط العثمانيون سيطرتهم على مصر ، وألقوا القبض على طومان باي وشنقوه وعلّقوا جثته على باب زويلة ، أحد أبواب مدينة القاهرة .

وكما بسط العثمانيون سيطرتهم على أراضي دولة المماليك في مصر والشام ، وسطروا نهايتها ، كذلك بسطوا نفوذهم على باقي البلدان العربية ، دول المغرب – ليبيا وتونس والجزائر ، وقد حافظت مراكش على استقلالها – ، ومكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، وإمارات الخليج العربي ، وأخيراً اليمن سنة 976 هجرية([2]) .

وقد أضحت هذه الدولة القوية التي لا تغيب الشمس عن أراضيها رمزاً لوحدة الأمة الإسلامية وقوتها ، وحازت اسم خلافة ، وأضحى السلطان العثماني خليفة للمسلمين([3]) .

وكما كانت البداية بدأت فصول النهاية ، إذ توفرت لهذه الدولة العظيمة أسباب الوهن ، ودخلت في مرحلة الشيخوخة ، وأطلق المؤرخون عليها اسم الرجل المريض ، وباتت عاجزة عن التصدي

([1]) أصبح سلطاناً بعد وفاة السلطان قنصوة الغوري في مرج دابق .

([2]) أعلنت بعض الدول دخولها تحت حكم العثمانيين بلا قتال ، كما هو حال مكة والمدينة ، وكانت اليمن أخر البلاد العربية دخولاً تحت راية العثمانيين ، وذلك سنة 976هجرية .

([3]) يرى عمر موسى باشا أن لقب خليفة أُطلق على السلاطين العثمانيين في القرن التاسع عشر الميلادي . انظر كتابه : تاريخ الأدب العربي – العصر العثماني ، الطبعة الأولى ، دار الفكر المعاصر ، بيروت 1989م ، ص13 .

للأخطار الخارجية والمؤامرات الداخلية ، وبدأ أعداؤها الصليبيون الإغارة على أطراف الدولة ، وانتزاع الدول الأوربية المنخرطة في عقد الخلافة واحدة تلو الأخرى ، ثم سجلت الحرب الكونية الأولى شهادة وفاة الخلافة العثمانية ، واقتسم الحلفاء المنتصرون إرثها ، ووقعت الدول العربية تحت نير اللاحتلال([1]) ، وأعلن رسمياً نهاية العصر العثماني سنة 1351هـ / 1923م([2]) .

([1]) أعاد الصليبيون احتلال الوطن العربي في مطلع العصر الحديث ، حيث تشاركت فرنسا وأسبانيا في احتلال دول المغرب الإسلامي ، احتلت الجزائر سنة 1830م ، وتونس 1881م ، ثم المغرب 1912م . واحتلت إيطاليا الأراضي الليبية سنة 1911م ، أما بريطانيا فقد استعمرت مصر سنة 1882م ، والسودان 1898م ، ووضعت فلسطين وشرق الأردن والعراق تحت الانتداب البريطاني سنة 1920م ، وبدأت بريطانيا باحتلال الخليج وإماراته سنة 1800م ، وفرضت سيطرتها على جميع أقاليم الخليج 1899م . ووقعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي 1920م .

([2]) للاستزادة راجع : - علي حسون : الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، الطبعة الثالثة ، المكتب الإسلامي، بيروت 1983م ، 197 . - حسن صبحي : التآمر الصهيوني ضد الأمة العربية ، دار النهضة العربية ، بيروت 1968م ، 97 .

ثانياً : الحياة الاقتصادية :

عمل المماليك منذ اللحظة الأولى التي وصلوا فيها إلى سدة الحكم على التصدي للأخطار الخارجية التي كانت تتهدد دولتهم ، والقضاء على الفتن والثورات الداخلية التي استهدفت استقرار ملكهم ، وقد بذلوا قصارى جهودهم لتوفر الأمن والأمان لرعاياهم ، وإرساء دعائم الاستقرار في أرجاء دولتهم في مصر والشام ، وقد ساعدهم على ذلك قوتان :

القوة الدينية التي تجسدت في تصديهم للدفاع عن الدين الإسلامي في وجه الصليبيين والتتار ، وتحرير المقدسات ، والاهتمام ببناء دور العبادة والاحتفاء بالعلماء ، كما فعل سلاطينهم الأقوياء أمثال الظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون ، والناصر محمد بن قلاوون ... مما أدى إلى التفاف الناس حولهم .

وقوة جيشهم وحُسن تنظيمه ، والاعتناء بالجنود وتخصيص الإقطاعات الزراعية التي تكفل لهم الحياة الكريمة ، سيراً على ما كان معمولاً به أيام الأيوبيين ، حيث كانت الأراضي الزراعية في مصر مقسمة إلى أربعة وعشرين قيراطاً ، للجنود عشرة قراريط ، وللأمراء عشرة ، وأربعة للسلطان ، وكان هذا الإقطاع محكوماً بنظم وقوانين عسكرية صارمة تتيح للمُقْطَع له الاستفادة من غلة الأرض ومحصولها ، كما تضمن عدم بيعها أو توريثها ، وفي حالة الإخلال بشروط الإقطاع ،

أو انتهاء مدة الإقطاع ، أوفاة المُقْطَع له تعود الأرض للسلطان لإعادة توزيعها([1]).

ولمّا كانت العلاقة بين الأوضاع السياسية والحياة الاقتصادية طردية ، فإن الحياة الاقتصادية ازدهرت فترات طويلة في عهود السلاطين المماليك الأقوياء الذين حموا البلاد ووفروا الأمن والأمان ، حيث ازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة . وقد كانت مدخولات الزراعة عصب الحياة الاقتصادية ، وكان خراجها الرافد الرئيس لخزينة الدولة ، إضافة إلى المكوس والضرائب التي تُفرض على عائدات الصناعة والتجارة .

وقد تنوعت المحاصيل الزراعية بتنوع البيئات الجغرافية ، والظروف المناخية ، ومصادر المياه ، ففي مصر كان القطن وقصب السكر والحبوب والخضراوات ، والفواكه والنخيل ، وغيرها من المحاصيل التي اعتمدت على مياه نهر النيل ، وفي الشام الحمضيات والفواكه والحبوب والخضراوات والكروم والنخيل والزيتون ، وباقي المحاصيل التي تعتمد في ريها على الأمطار الشتوية ، ومياه الجداول والأنهار .

ولقد اهتم السلاطين بتطوير الزراعة ، وزيادة مساحة الأراضي الزراعية ، فقاموا بشق الترع والخلجان ، واستصلاح الأراضي ، وبناء الجسور .

([1]) للاستزادة انظر : ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، ط2 ، الهيئة المصرية العامة ، القاهرة 1982م ، الجزء الأول – القسم الأول ، ص397 .

ومع ذلك فلم يكن العصر المملوكي كله عصر رخاء وازدهار ، فقد مرت البلاد أحياناً بأوقات عصيبة ساد فيها القحط ، وقل هطول الأمطار ، وانخفض منسوب المياه في الأنهار والترع ، فقلت المحاصيل وارتفعت الأسعار ، وانتشر الفقر ، وفتكت المجاعة بالناس ، وانتشرت الأمراض والأوبئة([1]) .

كذلك كانت الصناعة رافداً من روافد الاقتصاد في العصر المملوكي ، وكانت شريحة الصُنّاع في المرتبة الثانية من حيث العدد بعد شريحة المزارعين ، توزعوا على ثلاثة أنواع من الصناعات ، الصناعات الحربية كصناعة المراكب والسفن ، وجميع أنواع الأسلحة من سيوف ورماح ومجانيق وغيرها ، والصناعات الغذائية كصناعة صنوف الأطعمة والأشربة والحلويات ، وصناعة الملابس ، وبناء المنازل والقصور .. ، وصناعة الأثاث وأدوات الزينة والزخارف وغيرها من التحف التي زخرت بها قصور الأمراء والسلاطين([2]) .

أما التجارة فقد نشطت في ظل الاستقرار السياسي والازدهار الزراعي والصناعي ، سواء التجارة الداخلية بين مدن الشام ومصر ، أو التجارة الخارجية بين دولة المماليك والدول الأوربية ، كذلك لعب الموقع الجغرافي لمصر والشام دوراً بارزاً في التجارة العالمية ، حيث كانت بضائع الشرق الأدنى والأقصى تأخذ طريقها إلى أوربا عبر موانئ مصر

([1]) المقريزي ، تقي الدين : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشره محمد زيادة ، القاهرة 1940م . ص41 ، 42 .

([2]) للاستزادة انظر كتابي المقريزي : السلوك 527/1 . و الخطط 172/3 وما بعدها .

والشام ، وشكلت الرسوم والضرائب المحصلة من هذه الحركة التجارية النشطة رافداً مهما من روافد خزينة الدولة ، لذلك اجتهد سلاطين المماليك في تأمين طرق التجارة ، حتى في أثناء الاحتلال الصليبي لبعض مدن الشام ، حيث عقدوا الاتفاقات والمعاهدات التي تحمي حركة التجارة وتكفل أمن التجار([1]) ، كذلك دأبوا على تنشيط التجارة الداخلية والخارجية وتحسين مرافقها ، من ذلك تمهيد الطرق ، وإقامة الجسور ، وبناء الخانات([2]) في المدن وعلى الطرق الرئيسة ليستريح فيها التجار في حلهم وترحالهم بين مدن الشام ومصر والعراق والجزيرة العربية ، ففي فلسطين مثلاً نشير إلى خان يونس جنوب غزة ، وخان الظاهر بيبرس في بيت المقدس ، الذي ألحق به طاحوناً وفرناً وجعلهما سبيلاً ، ووقف عليه عدة قرى ببلاد الشام والقدس ، وكذلك خان الأمير طاجار الدوادار في جنين ، وخان المصرف وخان الفحم في بيت المقدس ..([3]) .

وكانت تنتقل التجارة الداخلية بين المدن والبلدان العربية عبر الطرق البرية والموانئ البحرية ، وكانت تصدر بعض السلع كالحرائر والأقمشة والصمغ والصابون وزيت الزيتون والقطن والسكر والتمور وغيرها من المحاصيل والبضائع عبر الموانئ الشامية والمصرية إلى

([1]) من ذلك الهدنة التي عقدها السلطان قلاوون مع الصليبيين في عكا سنة 682 هجرية ، والهدنة معهم في صور سنة 684 هجرية . للاستزادة انظر : طه ثلجي : مملكة صفد في عهد المماليك ، ط1 ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت 1982م ، ص 174 – 175 .

([2]) مفردها : خان ، وهو النُزل أو الفندق ، "والفندق بلغة أهل الشام : الخان السبيل من هذه الخانات التي ينزلها الناس مما يكون في الطرق والمدائن" . تاج العروس 655/1 .

([3]) السلوك ، طبعة دار الكتب العلمية ، 14/2 . وانظر أيضاً : تاريخ نيابة بيت المقدس 87 .

أوربا ، كما كانت تنتقل بعض السلع كالتوابل والبخور والعطور من الصين والهند إلى البلاد العربية عبر البحر الأحمر والخليج العربي ، كذلك لعبت المدن الساحلية في مصر والشام دور الوسيط التجاري بين دول الشرق والغرب .

وقد شكّل رواج الحركة التجارية رافداً من روافد خزينة الدولة ، كما أنعش الحياة الاقتصادية للسكان ، فبالإضافة إلى الأرباح والمكاسب التي جناها التجار والعاملون في المرافق التجارية المختلفة ، كانت الدولة تتقاضى ضريبة تراوح بين الخمسة والعشرة في المئة من قيمة البضائع والسلع التجارية([1]) .

وقد انعكست مظاهر الانتعاش الاقتصادي على حياة الوزراء والأمراء والسلاطين ، فشيدوا القصور الفخمة ، وأسرفوا في تزيينها وتأثيثها ، وأكثروا من اقتناء التحف والحلي ، وبالغوا في عدد الجواري والخدم العاملين فيها ...([2]) ، وكذلك تجلت مظاهر الثراء في حياة بعض شرائح المجتمع ، من علماء وفقهاء وتجار ، ووجد الفقراء غالباً مَن يهتم بتعليمهم وتوفير الطعام لهم ، فالظاهر بيبرس – مثلاً – كان يتصدق بعشرة آلاف إردب في كل سنة على الفقراء والمساكين ودور تعليم الفقراء – الزوايا والرباطات – ، وكان يتكفل بالأيتام من أبناء الجند

([1]) راجع : تاريخ نيابة بيت المقدس ص90 .

([2]) للاستزادة راجع : – النجوم الزاهرة 174/7 . – السلوك ، طبعة دار الكتب العلمية 302/3 – 303 .

ويوفر لهم ما يكفيهم ، وقد حذا الوزراء والأمراء والتجار والميسورون حذو سلطانهم في أوقات القحط واشتداد الغلاء([1]) .

أما **العصر العثماني** فقد اشتمل على أسباب القوة وعوامل الرخاء والانتعاش الاقتصادي ، كما حمل بذور الضعف والكساد في طيات نظامه الإداري ، فترامي أطراف الدولة العثمانية في ثلاث قارات ، وإطلال مدنها وبلدانها على أهم المنافذ المائية في العالم ، كالمحيطين الهندي والأطلسي ، والبحرين المتوسط والأحمر ، أدى إلى تنوع المحاصيل الزراعية والمنتجات الصناعية ، كما أدى إلى رواج التجارة الداخلية بين مدن وبلدان الدولة العثمانية ، والتجارة الخارجية مع معظم دول العالم .

فعلى صعيد الزراعة أبقى العثمانيون نظام الإقطاع العسكري ، وتوسعوا فيه ، واختلفت مساحات الأراضي التي توزعت بين الإقطاع ، والوقف ، والملكيات الخاصة عمّا كانت عليه زمن المماليك ، إذ شكّلت أراضي الدولة – الميري – المُقْطَعَة للسلاطين وأفراد عائلاتهم ، والعاملين في قصورهم ، ولقادة الجند والفرسان ، وكبار الموظفين المدنيين ، ورجال الدين والعلماء .. شكّلت النسبة الأكبر من مساحة الأرض الزراعية . يليها الأراضي التي أوقفها السلاطين وبعض رجال الدولة للإنفاق على المساجد والمدارس والمستشفيات والفقراء . وأخيراً الأراضي التي تملكها بعض العائلات الميسورة ومتوسطة الحال ، وقد كان أصحابها عُرضة لاستغلال الباشا العثماني ، والحاكم المملوكي ،

([1]) راجع : – تاريخ ابن الوردي 218/2 . – النجوم الزاهرة 160/7 .

وعجز بعضهم أحياناً عن دفع الضرائب والإتاوات لكليهما ، فصودرت أرضه ، وانحدر إلى هوة الفقر والبؤس .

أما الصناعة في الوطن العربي فتنوعت بتنوع المواد الأولية المتوفرة في كل بلد ، فمصر مثلاً اشتهرت بصناعة النسيج ، وصبغ الملابس والجلود ، وبعض صناعات الحديد كالسيوف والملابس ، والأسلحة النارية ، والتحف والزخارف ، وفنون العمارة ، والأثاث الخشبي ، وصناعة السفن وقوارب الصيد في الإسكندرية .. ، واشتهرت دمشق وبعض المدن السورية بصناعة الزجاج ، والصابون ، والفواكه المجففة ، والأواني النحاسية ، والأثاث الخشبي ، والحرير والصوف والمنسوجات عامة ، واشتهرت لبنان بصهر الحديد وصناعة الأسلحة ، واشتهرت فلسطين بصناعة الصابون ، والزجاج ، والجلود ، والمصنوعات الخشبية والصدفية ، واشتهرت اليمن بصناعة الجلود ، والحلي الفضية ، وتجفيف الفواكه ، وصهر الحديد وصناعة الأدوات الحربية كالبنادق العربية ، والنصال والسيوف التي اشتهرت بها مدينة صعدة ..([1]) .

وقد ساعد تنوع المحاصيل الزراعية ، والمنتجات الصناعية في بلاد الوطن العربي على رواج التجارة بين هذه البلاد من جهة ، وبينها

([1]) للتعرف على الصناعات في البلاد العربية في العصر العثماني راجع :

- محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة 1985م ، ص 111 وما بعدها .
- عبد العزيز الدوري : التكوين التاريخي للأمة العربية ، الطبعة الأولى ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت 1984م ، ص 121 وما بعدها .

وبين باقي البلاد الخاضعة للنفوذ العثماني من جهة ثانية ، ثم بينها وبين دول العالم بأسره .

كما كان لموقع البلاد العربية الأثر الأكبر في جعلها وسيطاً بين الشرق والغرب ، وجعل العديد من المدن مراكز تجارة عالمية ، يتنافس على الوصول إليها تجار البندقية ، وتجار فرنسا وباقي دول أوربا([1]) ،

كذلك نشطت حركة التجارة في المواسم والمناسبات الدينية ، وقد شجع العثمانيون هذه التجارة بإعفائها من الضرائب ، فتحولت مكة والمدينة والقدس مراكز تجارية ، كذلك مدن المزارات الشيعية كالنجف وكربلاء ، والمسيحية مثل بيت لحم والناصرة .

ورغم حرص الإدارة العثمانية على تأمين طرق التجارة الممتدة في أرجاء الدولة إلا أن البدو وقُطّاع الطرق قد نجحوا أحياناً في السطو على القوافل التجارية ، مما اضطر التجار في بعض المناطق إلى دفع ضريبة للبدو عُرفت باسم "الخُوّة" نظير حماية تجارتهم وأنفسهم([2]) .

---

(1) فمدينة الإسكندرية كانت مركز التجارة بين إفريقيا والتجارة القادمة من شبه الجزيرة العربية عن طريق البحر الأحمر من جهة وأوربا من جهة أخرى ، ومدينة حلب كانت مركز الحركة التجارية مع إيران والعراق والخليج العربي ، تردها الحرائر والتوابل من أصفهان والهند عن طريق البصرة وبغداد ... للاستزادة راجع : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1990م .

(2) محمد بهجت البيطار : الرحلة النجدية الحجازية ، المطبعة الجديدة ، دمشق 1967م ، ص 10 وما بعدها .

ثالثاً : الحياة الاجتماعية :

اختلفت وجهات نظر المؤرخين في تقييم واقع الناس الاقتصادي في العصر المملوكي ، وتباينت آراؤهم في عدد طبقات المجتمع ، فابن خلدون – مثلاً – يقسم أفراد المجتمع إلى طبقتين متمايزتين ، هما الطبقة الحاكمة ، وتشمل السلطان والأمراء والوزراء وقادة الجند وكبار موظفي الدولة ، وطبقة الرعية ، وتشمل كل فئات الشعب وشرائحه([1]) .

وإذا كان ابن خلدون قد ساوى في الطبقة الحاكمة بين السلطان وقادة الجند أو كبار موظفي الدولة ، وساوى في طبقة الرعية بين الأثرياء والفقراء ، وتجاهل الفروق الاقتصادية والاجتماعية بين شرائح المجتمع المختلفة ، وصبّ جل اهتمامه على إظهار الفجوة الشاسعة بين الطبقة الحاكمة والرعية ، فإن المقريزي توسع في تقسيم فئات المجتمع ، وجعلها سبعة أقسام ، هي : "القسم الأول أهل الدولة ، والقسم الثاني أهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهية ، والقسم الثالث الباعة ، وهم متوسطو الحال من التجار ، ويقال لهم أهل البز ، ويلحق بهم أهل المعايش وهم السوقة ، والقسم الرابع أهل الفلح ، وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف ، والقسم الخامس الفقراء وهم جلّ الفقهاء وطلاب العلم ، والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم ، والقسم السادس أرباب الصنائع والأجراء ، وأصحاب المهن ، والقسم السابع ذوو الحاجة والمسكنة وهم السؤّال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم"([2]) .

([1]) انظر : عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ، المطبعة الأميرية ببولاق ، القاهرة 1321هـ ، ص 183 .

([2]) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، طبعة القاهرة 1940 ، ص72 - 73 .

إن إنعام النظر في تقسيم ابن خلدون والمقريزي وغيرهما من المؤرخين([1]) لطبقات المجتمع في العصر المملوكي يجعلنا نقول أن المجتمع انقسم إلى أربع طبقات متمايزة في المستوى الاقتصادي والخصائص المعيشية ، وهذه الطبقات هي : طبقة رجال الدولة وتشمل السلطان والأمراء والوزراء وقادة الجند وكبار موظفي الدولة من القضاة ورؤساء الدواوين وكبار الكتاب ، ثم طبقة ذوي اليسار من التجار والفقهاء والعلماء ، أما الطبقة الثالثة فتشمل متوسطي الحال من الباعة وأرباب الحرف وطلاب العلم وأهل الزراعات وسكان الريف والقرى ، وأخيراً الفقراء والمساكين ، وقد كان عددهم يزيد وينقص حسب أحوال البلاد السياسية والاقتصادية .

وقد تمتع أفراد الطبقة الأولى بامتيازات كفلت لهم حياة الترف والبذخ ، حيث استأثر السلاطين والوزراء والأمراء ومَن لف لفهم بالكثير من خيرات البلاد ، كعائدات الأراضي الزراعية الموقوفة لهم ، وعائدات التجارة التي كان يشتغل بها الكثير منهم ، إضافة إلى عائدات الخراج والضرائب .

وقد اقتصرت الطبقة الحاكمة على المماليك – بحرية وبرجية – ، وغالبيتهم من أصول تركية وكردية وجركسية وبعض الذين أسلموا من

---

(1) انظر مثلاً : ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ضبطه وصححه الشيخ عبد الوارث محمد علي ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1997م ، 196/1 .

التتار ، أما أبناء الشعب فلم يُسمح لهم بالوصول إلى المناصب الرفيعة في الدولة ، كقيادة الجيش أو نيابة السلطنة أو الإمارة([1]) .

عاش المماليك في قصور فخمة كثيرة الغرف والقاعات ، تشتمل على كل مظاهر الرفاهية والترف ، سقوفها وحيطانها مزخرفة بالذهب ، مفروشة بأجمل الأثاث ، تضم أنفس التحف والمشغولات ، فيها أماكن واسعة للأعمال الرسمية والاجتماعات والحفلات ، وفيها قسم خاص يضم الكثير من الغرف للنساء من زوجات ومحظيات وقيان ، وكانت ملابسهم توشّى بالذهب والجواهر حتى أغطية الرءوس والأحزمة والنعال .

وكان السلطان يقيم الاحتفالات في كل مناسبة ، كمناسبة توليه السلطنة والاحتفاء بضيف أو سفير ، والفرح بالشفاء من مرض أو خروجه من المدينة أو عودته إليها ، وكان بعض السلاطين يجلسون للقضاء والنظر في المظالم مصطحبين معهم قضاة المذاهب الأربعة ، وكبار رجال الدولة ، والحرس الخاص .

وقد اهتم السلاطين بإنشاء المساجد والمدارس ، وأقاموا الاحتفالات الحاشدة عند افتتاحها ، واستمعوا للدروس الأولى التي ألقيت فيها ، وتناظر أحياناً بعض السلاطين مع بعض الأئمة والعلماء في أمور الدين وغيرها ، من ذلك المجالس العلمية التي اشتهر بها الأشرف الغوري([2]) .

([1]) للاستزادة راجع : السلوك 441/1 ، 302/3 ، 312 .

([2]) للاستزادة راجع : – عبد الفتاح سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، القاهرة 1962م ، ص 158 .

– محمد زغلول سلام : الأدب في العصر المملوكي ، طبعة دار المعارف بمصر 1971م، 51/1 – 57.

وقد تشبه الأمراء والوزراء وقادة الجند بالسلاطين في حياة البذخ والترف ، وكانت قصورهم المنتشرة في الشام ومصر مثل قصور السلاطين ، من حيث زخرفتها وطلائها ، وما تضمه من أثاث وتحف ومقتنيات وخدم وجواري([1]) .

وقد آثر بعض أبناء المماليك الابتعاد عن صخب الحياة السياسية والعسكرية ، والعيش بدعة وسلام([2]) ، وقد حقق بعضهم مكانة علمية وثقافية يشار إليها بالبنان ، ومنهم : أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري صاحب كتاب كنز الدرر وجامع الغرر المتوفى سنة 734 هجرية ، وصارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي المعروف بابن دقماق صاحب كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار المتوفى سنة 809 هجرية ، وغرس الدين خليل بن شاهين الظاهري صاحب كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك المتوفى سنة 873 هجرية ، وأبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي المتوفى سنة 874 هجرية ، وأبو البركات محمد بن أحمد الحنفي المصري المعروف بابن إياس صاحب كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور المتوفى سنة 930 هجرية ..([3]) .

وكذلك عاش الكثير من علماء الدين والكُتّاب حياة الترف والبذخ ، وكثيراً ما تشبهوا بالسلاطين والأمراء في طريقة حياتهم ، حيث أغدق

([1]) انظر : شهاب الدين أحمد القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، طبعة دار الكتب ، القاهرة 1913 - 1928 ، 13/4 .

([2]) وقد أطلق المؤرخون عليهم اسم "أولاد الناس" ، وهم الذين لم يمسهم الرق كآبائهم .

([3]) راجع : السلوك 280/3 . النجوم الزاهرة 96/16 .

عليهم السلاطين ، وأقطعوهم الضياع والبساتين والحقول ، واشتغل بعضهم بالتجارة ، فامتلكوا القصور والبيوت الفخمة ، واقتنوا الجواري والخدم ، وقد ميزهم أهل ذلك الزمان عن غيرهم من الناس باسم "المتعممين"([1]) ، كما انتقد البعض سلوكهم وأسلوب حياتهم ، وما يحوزون من الثروة ، وعاتب الحكام على ما يخصونهم به ، وحرضهم عليهم ، من ذلك مثلاً ما يشتمل عليه قول البوصيري([2]):

أَمَوْلانا الوزيرَ غَفَلْتَ عَمَّا ... يُهِمُّ مِنَ الكِلابِ الخَائِنِينا
أَتُطْلِقُ جَامِكِيَّاتٍ لِقَوْمٍ ... وتُنْفِقُ فَيْءَ قَوْمٍ آخَرِينا([3])
فَلا تُهْمِلْ أُمُورَ المُلْكِ حَتَّى ... يَذِلَّ الجُنْدُ للمُتَعَمِّمِينا
فَهَلْ مَلَكُوا بأَقْلامٍ قِلاعاً ... وهَلْ فَتَحُوا بأَوْرَاقٍ حُصُونا
وَمَنْ قَتَلَ الفِرَنجَ أَشَدَّ قَتْلٍ ... وَمَنْ أَسَرَ الفِرَنْسِيسَ اللَّعِينا
وَمَنْ خَاضَ الهَوَاجِرَ وهُوَ ظَامٍ ... إلى أَنْ أَوْرَثَ التَّتَرَ المَنُونا
ولاقُوا المَوْتَ دُونَ حَرِيمِ مِصْرٍ ... وَصَانُوا المَالَ مِنْهُمْ وَالبَنِينا
وَمَا أَحَدٌ أَحَقَّ بأَخْذِ مَالٍ ... مِنَ الأَتْرَاكِ والمُتَجَنِّدِينا

ولقد حرص معظم السلاطين على إرضاء القضاة والفقهاء وتقريبهم منهم ، نظراً لما كان يتمتع به رجال الدين الإسلامي من مكانة وتأثير في نفوس الناس ، وفي تقدير السلاطين لرجال الدين يقول

([1]) ذلك لأن عمائمهم كانت تختلف في شكلها وكبر حجمها عن عمائم باقي فئات الشعب ، وذلك تعبيراً عن مكانتهم الاجتماعية الراقية . راجع : قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك ، الطبعة الأولى ، مصر 1998م ، ص 174 .

([2]) راجع كتابنا : البوصيري شاهد على العصر المملوكي ، الطبعة الرابعة ، دار المقداد للطباعة ، غزة 2005م ، ص 45 – 53 .

([3]) جامكيات : كلمة فارسية معناها معاشات .

المقريزي : "يرون – السلاطين – أن بهم عرفوا دين الإسلام ، وفي بركتهم يعيشون ، وحسب أعظمهم قدراً أن يُقبِّل يد الفقيه والقاضي"([1]). كما اتخذ بعض السلاطين إرضاء القضاة والفقهاء وسيلة لكي يصدروا لهم الفتاوى التي تبيح فرض الضرائب أو مصادرة الأملاك والأوقاف([2]) .

كذلك عاش كبار العاملين في الجهازين الإداري والمالي للدولة حياة الترف والبذخ ، وأكثر بعضهم من اتخاذ الغلمان والخدم والجواري ، إذ بلغت الرواتب الشهرية للكُتَّاب مائتين وخمسين ديناراً إضافة إلى بعض المخصصات من الخبز واللحم والزيت والكسوة والسكر .. ، وكان لبعضهم إقطاعات أو نصيب من الأوقاف([3]) ، وقد استغل العديد منهم منصبه لتحقيق الثراء الفاحش ، الأمر الذي ألّب عليهم الشعراء ، من ذلك قول البوصيري([4]) :

ثَكِلْتُ طَوَائِفَ المُسْتَخْدَمِينا ... فَلَمْ أَرَ فِيهِمُ رَجُلاً أَمِينا
فَخُذْ أَخْبَارَهُمْ مِنِّي شِفَاهاً ... وَأَنْظِرْنِي لأُخْبِرُكَ اليَقِينا
فَقَدْ عَاشَرْتُهُمْ وَلَبِثْتُ فِيهِمْ ... مَعَ التَّجْرِيبِ مِنْ عُمْرِي سِنِينا
حَوَتْ بُلْبَيْسُ طَائِفَةً لُصُوصاً ... عَدَلْتُ بِوَاحِدٍ مِنْهُمْ مِئِينا

أما الجهاز المالي فقد استأثر أهل الذمة المصريون بالعمل فيه ، وذلك للخبرة المحاسبية التي كانوا يتمتعون بها ، وقد أُخِذ عليهم تعصبهم لأبناء دينهم ضدّ المسلمين ، واستغلالهم نفوذهم للعبث بمقدرات الدولة

---

(1) السلوك 490/7 – 450 .
(2) انظر : النجوم الزاهرة 338/15 . بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، القاهرة 1963 ، 13/3 .
(3) محمد زغلول سلام : الأدب في العصر المملوكي 75/1 – 78 . وانظر : السلوك 136/3 .
(4) البوصيري شاهد على العصر المملوكي 45 .

وتحقيق الثراء الفاحش ، الأمر الذي دفع الشعراء للتحريض ضدهم ، وكثيراً ما صادر السلاطين ثرواتهم ، ولعلَّ البوصيري كان يقصدهم في قوله محرضاً السلطان([1]) :

انْظُرْ بحَقِّكَ في أَمْـرِ الـدَّواوينِ   فالكلُّ قَدْ غَيَّرُوا وضَعَ القَـوانينِ
لَمْ يَبْقَ شَيءٌ عَلَى ما كُنْتَ تَعْهَدُهُ   إلاَّ تَغَيَّرَ مِـنْ عـالٍ إلـى دُونِ
الكاتِبُونَ ولَيْسُوا بـالكِرام فمـا   مِنْهُمْ على المَالِ إنْسانٌ بمَـأْمُونِ
والكُلُّ جَمْعاً بِبَذْلِ المَالِ قد خَدَمُوا   وما سَمِعْنا بِهذا غيرَ ذا الحِـينِ

كما حقق التجار ثراءً جعلهم في أعلى درجات السلم الاجتماعي أحياناً ، وتشبه الكثير منهم في ترف العيش بحياة الأمراء والسلاطين ، فاشتملت قصورهم على الجواري والغلمان والخدم ، وتزينت بالمشغولات الذهبية وفاخر الأثاث ، ليس ذلك فحسب بل كان السلاطين والأمراء يقترضون منهم في أوقات الحروب والأزمات ، وكانوا يشاركونهم أحياناً في تجارتهم([2]) .

وكان تجار الجملة وأصحاب الحرف والصناعات يعيشون حياة ميسورة ، أما الفلاحون فكانوا – غالباً – في أخر درجات السلَّم الاجتماعي ، وقليلاً ما تمتعوا بالسعة والرفاهية([3]) .

وقد شاركت المرأة في أوجه الحياة الاجتماعية ، وخضعت مشاركتها ومكانتها الاجتماعية للطبقة التي تنتمي إليها ، فنساء الطبقة

([1]) السابق 50 .

([2]) إغاثة الأمة ص38 .

([3]) ابن كثير : البداية والنهاية ، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح ، الطبعة الخامسة ، دار الحديث ، القاهرة ، 1998م ، 293/14 .

الحاكمة كن يعشن حياة مترفة ، ويمتلكن الأموال والمجوهرات والنفيس من المتاع ، ويتمتعن بنفوذ واسع ، يتدخلن في مجريات الحياة السياسية . يُعَيِّنَّ في المناصب العليا ويعزلن منها ، ويهبن الأعطيات والهدايا ، ويشاركن في الاحتفالات والمناسبات العامة ، وكذلك حال نساء ذوي اليسار اللواتي عشن حياة مترفة ، وامتلكن ثروة واسعة ، وساهمن في أعمال الخير وبعض الأنشطة الاجتماعية .

أما نساء عامة الشعب فقد شاركن الرجل – غالباً – في إدارة شئون الحياة ، وذقن قسوة الحياة وشظف العيش أحياناً ، وتعرض بعضهن للظلم والاضطهاد ..(1) .

أما في العصر العثماني فقد اتسعت رقعة الدولة ، وضمت دولاً من ثلاث قارات ، آسيا وإفريقيا وأوروبا ، وأضحى السكان فئتين ، فئة العثمانيين التي تضم السلطان أو الباب العالي – كما كان يُلَّقب – ورجال الدولة ثم باقي فئات المجتمع العثماني ، وفئة الرعايا التي تضم أخلاطاً من سكان الدولة الخاضعة لحكم العثمانيين في القارات الثلاثة المذكورة ، من مختلف القوميات ، منهم العرب ، والبربر ، والأكراد ، والأرمن ، والسلاف ، واليونان ، والألبان ، ومن مختلف الأديان والمُعتقدات ، واللغات والثقافات ، والعادات والتقاليد .

---

(1) راجع : – محمد بن علي الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، وضع حواشيه خليل المنصور ، منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت369/1-370 . – صبح الأعشى 166/7 . – البداية والنهاية 301/14 . – السلوك 3/2 .

وقد عاش السلاطين وأفراد الطبقة الحاكمة من الأتراك العثمانيين حياة مترفة ، لا تختلف كثيراً عن نمط سلاطين المماليك ورجال دولتهم ، بل غالباً ما كانوا يقلدونهم في أساليب حياتهم وبذخ عيشهم ، بينما تنوعت أساليب حياة باقي شرائح الشعب العثماني ، وعانى بعضهم شظف العيش بينما تمتع آخرون برغد العيش ، وكذلك كان حال رعايا الدولة العثمانية من العرب وغيرهم من أبناء القوميات المختلفة ، وإجمالاً يمكن تقسيم الطبقات الاجتماعية للأتراك العثمانيين ، وشعوب القوميات الأخرى في المدن والبلدان الخاضعة للنفوذ العثماني إلى أربع طبقات ، كما كان الحال في دولة المماليك تقريباً ، فالطبقة الأولى تضم السلاطين العثمانيين ، وكبار قادة الجند ، والوزراء ، وولاة الأمصار وغيرهم من رجال الدولة وغالبيتهم من الأتراك العثمانيين([1]) . والطبقة الثانية هي طبقة ذوي اليسار ، وتضم كبار التجار ، وأصحاب الأملاك ، والفقهاء والعلماء ، ولا تقتصر فئات هذه الطبقة وما يليها من طبقات على قومية بعينها . ثم طبقة متوسطي الحال من عامة العثمانيين والرعايا من مختلف القوميات . وأخيراً طبقة الفقراء والمساكين ، وهي ثاني أكبر الطبقات بعد طبقة متوسطي الحال ، وقد ازداد عددها مع اتساع الشقة بين السلطان – الباب العالي – وممثليه الباشاوات الولاة في مختلف أقطار الدولة ، وكذلك

([1]) لم يغير العثمانيون النظام الإداري الذي كان يتبعه المماليك في حكم مصر والشام ، حيث أبقوا الحكام المماليك في مناصبهم وعينوا ولاة – باشاوات – عثمانيين يمثلون السلطان إلى جانبهم .

بسبب التنافس بين هؤلاء الولاة العثمانيين والحكام الأصليين على ابتزاز الناس وفرض صنوف الضرائب عليهم([1]) .

أما مظاهر الحياة الاجتماعية في مصر والشام فلم تختلف كثيراً عما كانت عليه في ظل حكم المماليك ، حيث حافظ الحكام والأمراء المماليك على مكانتهم ، وازداد اهتمام السلاطين العثمانيين برجال الدين والعلماء ، كما اهتموا بالشعائر الدينية ، فتوسعوا في بناء المساجد ، واهتموا بصيانة الأماكن المقدسة ، واعتنوا بالحج ، وأمّنوا طرق الحجاج ووفروا لهم سُبل الراحة([2]).

كما حافظت المرأة على مكانتها الاجتماعية واحترامها ، وبالغ السلاطين في الحفاظ على عفتها ، فعزلوا حريمهم وزوجاتهم عن المشاركة في الحياة العامة في قصور خاصة بهن تُسمي "الحرملك" ، وقد تشبه بهم بعض رجال الدولة والفقهاء والعلماء وبعض ذوي اليسار ، أما المرأة العربية بشكل عام فقد شاركت بنسب متفاوتة في أوجه الحياة الاجتماعية المختلفة ([3]) .

ومن المظاهر السلبية التي يمكن الإشارة إليها انتشار التصوف بشكل واسع ، واقترانه بالحشيش والأفيون ، وانتشار الخمر بين المُجّان

([1]) للاستزادة راجع : - نجم الدين محمد بن محمد الغزي : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، تحقيق جبرائيل سليمان جبور ، الطبعة الثانية ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت 1979م ، 193/2 . - المحبي : خلاصة الأثر 110/2 . - عبد العزيز محمد عوض : الإدارة العثمانية في ولاية سورية ، طبعة دار المعارف ، القاهرة 1969م ، ص111 وما بعدها .

([2]) انظر : المحبي : خلاصة الأثر 111/2 .

([3]) انظر : عمر موسى باشا : تاريخ الأدب العربي – العصر العثماني ، ص 34 – 36 .

من الشعراء والأدباء ، كذلك كثرة المشعوذين والمُنجمين ، وكثرة قطــاع الطرق واللصوص من الأعراب والفارين من التجنيد الإجباري في الجيش العثماني ..([1]) .

([1]) انظر : السابق 258/3 . و301/4 ، 341 .

رابعاً : الحياة العلمية :

درج بعض الدارسين المحدثين على وصف العصر المملوكي بتخلف الحركة العلمية وانحطاط مستوى الحياة الأدبية والثقافية ، وقد أغفلوا ذِكر المفكرين والأدباء التي تُباهي بأسمائهم كتب الأعلام والتراجم، وتجاهلوا ما أنتجوه من موسوعات علمية وأدبية تشغل حيزاً كبيراً في مكتبة التراث العربي والإسلامي ، وقد أرجع الكثير منهم هذا التخلف والانحطاط إلى عدة أسباب أهمها – في رأيهم – جهل الأمراء والسلاطين المماليك باللغة العربية ، وعدم تشجيعهم العلماء والأدباء([1]).

وهذا الموقف يجافي الواقع والحقيقة ، فكيف يجهل السلاطين اللغة العربية ويبقونها لغة رسمية للدولة ؟! ، وقد أشرنا فيما سبق إلى اهتمام المماليك بالتعليم ، وأنهم أنشأوا مدارس خاصة لأبناء جلدتهم ، وأنهم انتهجوا نهجاً صارماً لتنشئتهم على اللغة العربية وعلومها ، وعلوم القرآن والسنة ، ثم العلوم العسكرية وفنون القتال ، كما أشرنا إلى أسماء بعض العلماء المماليك البارزين مثل ابن إياس وابن تغري بردي وابن دقماق وابن شاهين ..([2]) .

([1]) انظر مثلاً : – أحمد صادق الجمال : الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي ، طبعة الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة 1966 ، ص 35 . – قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك ، ص 170 . – محمود الربداوي : ابن حجة الحموي شاعراً وناقداً ، طبعة دار قتيبة 1982م ، ص 34 . ويكفي في هذا المضمار النظر إلى المناهج الدراسية في البلدان العربية التي تبرر عدم تدريس هذا العصر بأنه عصر ركود وانحطاط .

([2]) انظر حديث المقريزي عن تعليم المماليك في كتابه الخطط 372/3 .

كذلك اهتم السلاطين بإتاحة فرصة التعليم المجاني للراغبين من كل فئات المجتمع ، حيث ساروا على سنة الأيوبيين في رعاية العلماء وطلاب العلم وتنشيط الحركة الفكرية ، وفاقوهم في بناء المدارس ودور العلم .

فعلى صعيد رعاية العلماء رأينا المكانة الاجتماعية التي تبوأها العلماء ، وما وهبهم إياه السلاطين من إقطاعات زراعية ، وما أغدقوا عليهم من أموال ، ولم يكن هذا الأمر مقتصراً على علماء مصر والشام المواطنين ، بل امتدت هذه الرعاية لتشمل العلماء المهاجرين من بلدان المغرب ، والفارين من وجه زحف الفرنجة على الأندلس ، وكذلك الناجين من الطوفان المغولي الذي دمر بغداد وبعض مدن المشرق الإسلامي ، حيث أحسن المماليك استقبالهم ، وأحاطوهم بالرعاية ، وأجروا عليهم الأرزاق ، ومن هؤلاء العلماء نذكر – على سبيل المثال – علي بن موسى المعروف بابن سعيد المغربي ، صاحب كتاب المُغرب في حلى المغرب ، وعلي بن مؤمن النحوي الحضرمي الأشبيلي المشهور بابن عصفور ، حامل لواء العربية بالأندلس الذي أقام في حلب ، وعبد الرحمن بن خلدون ، وشمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان صاحب كتاب وفيات الأعيان ، ومحمد جمال الدين بن مالك صاحب الألفية المشهورة في النحو ، وغيرهم كثير ..([1]).

اهتم الأمراء والسلاطين بإنشاء المدارس وإلحاق المراكز التعليمية بالمساجد والزوايا والخوانق والربط ، وقد عبَّر بعض أهل ذلك الزمان

([1]) للاستزادة راجع : محمد زغلول سلام : الأدب في العصر المملوكي 1/106-108 .

عن دهشتهم من كثرة عدد المدارس ، من ذلك قول ابن بطوطة : "لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها"([1]) ، وكذلك قول القلقشندي : "إن هؤلاء السلاطين بنوا من المدارس ما ملأ الأخطاط وشحنها"([2]) . ومما قاله الشعراء في تقريظ بعض تلك المدارس نذكر قول البوصيري في مدرسة شيدها السلطان المنصور قلاوون سنة 684 هجرية([3]) :

وَمدْرَسَةٌ وَدَّ الخَوَرْنَقُ أَنَّهُ   لَدَيْها حَظِيرٌ ، والسَّدِيرُ غَدِيرُ
مَدِيْنَةُ عِلْمٍ والمَدَارِسُ حَوْلَهَا   قُرَىً ، أَوْ نُجُومٌ بَدْرُهُنَّ مُنِيرُ
تَبَدّتْ فَأَخْفَى الظَّاهِرِيَّةَ نُورُها   وليسَ بِظُهْرِ للنُّجُومِ ظُهُورُ
بِناءٌ كَأَنَّ النَّحْلَ هَنْدَسَ شَكْلَهُ   وَلانَتْ لَهُ كالسَّمْعِ منه صُخُورُ

وقول ابن العطار في مدرسة أنشأها الظاهر برقوق سنة 786 هجرية([4]):

قَدْ أَنْشأَ الظَّاهِرُ السلطانُ مَدْرَسَةً   فَاقَتْ عَلَى إرم مَع سُرعَةِ العَمَلِ
يَكفِي الخَلِيْلِي أَنْ جَاءَتْ لِخِدْمَتِهِ   شُمُّ الجِبَالِ لَهَا تَأْتِي عَلَى عَجَلِ

وكما ألحقوا بتلك المدارس المكتبات الضخمة ، كذلك دشنوا المكتبات العامة والخاصة ، وخزائن الكتب في شتى مدن مصر والشام ، نذكر منها مكتبة قلعة الجبل ، وخزانة جامع الحاكم بأمر الله ، وخزانة جامع المؤيد ..([5]) .

([1]) عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، طبعة دار التراث ، بيروت 1968م ، ص 70 .

([2]) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، طبعة دار الكتب المصرية 1913 ، 367/3 .

([3]) البوصيري شاهد على العصر المملوكي 65 .

([4]) محمود الربداوي : ابن حجة الحموي شاعراً وناقداً ، 35 .

([5]) وقد احتوت بعض هذه المكتبات أكثر من مئة ألف كتاب . للاستزادة راجع : الأدب في العصر المملوكي 108/1 وما بعدها .

وكانت الكتاتيب المنتشرة في النجوع والقرى والمدن تُعِدُّ النشء للالتحاق بتلك المدارس والمراكز التعليمية ، تعلمهم القراءة والكتابة ، وتزودهم ببعض المعارف الأولية ، وتحفظهم القرآن الكريم([1]).

كذلك اعتنوا بالطلاب ، ووفروا لهم سكناً قريباً من المدارس والمراكز التعليمية ، ووفروا لهم الطعام والكساء ، وأوقفوا الأراضي الزراعية والعقارات للإنفاق عليهم وعلى مراكز التعليم ومرافقها المتنوعة([2]) .

وهكذا فقد تهيأت الأسباب لدولة المماليك في مصر والشام لكي تضحي قبلة العرب والمسلمين الثقافية ، وملاذهم الآمن ، بعد استيلاء الفرنجة على الأندلس والمغول على بغداد ، وتدمير المكتبات وإتلاف معظم محتوياتها من كتب وموسوعات ، كما تهيأت أسباب ازدهار حركة التأليف والإبداع في جميع المجالات العلمية والأدبية ، ليباهي العصر المملوكي جميع عصور العربية بتراثه الموسوعي في جميع فروع المعرفة([3]) .

وجاء **الحكم العثماني** فدخلت باقي الأقطار العربية تحت عباءة العثمانيين ، وأبقى السلاطين العثمانيون الحُكامَ المماليك على حالهم في حكم مدن الشام ومصر ، كما أبقوا معظم حكام الدول العربية – التي لم

([1]) راجع : عبد الفتاح سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص340 .

([2]) المقريزي : الخطط 213/4 .

([3]) حسن المحاضرة 102/2 .

تكن تحت نفوذ المماليك – في أماكنهم ، وعينوا فوقهم حكاماً عثمانيين يمثلونهم في حكم هذه الدول .

وكان السلاطين في القسطنطينية – العاصمة السياسية للعثمانيين – يديرون الشئون السياسية العامة للبلاد العربية ، وكان الحكام المماليك وحكام الدول الأخرى هم الحكام الحقيقيون لبلادهم ، وكان للباشاوات السلطة الاسمية فقط ، لذلك نعمت جميع هذه البلاد بقدر كبير من الاستقلال الفكري والثقافي ، وفاقت سلطة العلماء ورجال الدين سلطة الباشا أحياناً([1]) .

ولم يمنع تربع اللغة التركية على عرش الدولة العثمانية في القسطنطينية سيادة اللغة العربية في بلادها ، فهي اللغة الرسمية في جميع الدول العربية ، الأمر الذي يبرر قولنا كانت الحياة الفكرية والثقافية في الوطن العربي زمن العثمانيين امتداداً طبيعياً للعصر المملوكي وعصور العربية التي سبقته .

وبالرغم مما ذكره المؤرخون عن انتشار اللغتين الفارسية والتركية في العصر العثماني ، وجهل السلاطين والحكام العثمانيين باللغة العربية ، فإن الكثير من الأتراك والفرس تعلموا العربية ، لأنها لغة الدين والثقافة الإسلامية ، وقد أشار المحبي في كتابه خلاصة الأثر إلى العديد منهم ، فمثلاً ذكر قاضي العساكر محمد بن أحمد بن مصطفى بن خليل المُلقب "طاشكبري زاده" ، وذكر مكانة والده العلمية فقال في ترجمته : "فرد الدهر المُجْمَعُ على فضله وبراعته ، وكان في العلم طوداً شامخاً ،

([1]) انظر : المحبي : خلاصة الأثر 110/2 – 111 .

لم يُرَ نظيره في طلاقة العبارة والتضلع من العربية ، قال النجم الغزي في ترجمته لم أرَ رومياً أفصح منه باللسان العربي ... أخذ عن والده العالم المشهور صاحب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ، وعن شيخ الإسلام أبي السعود العمادي ، ودرس بمدارس قسطنطينية ، ثم صار قاضياً بحلب ، ونقل منها إلى دمشق ، فدخلها في أوائل المحرّم سنة خمس بعد الألف ، وأقبل على أهلها ، وعاملهم بالإكرام التام حتى سحر عقول علمائها"([1]) .

ومن العلماء الكثيرين الذين ترجم لهم المحبي نذكر أيضاً عبد الرحمن بن حسام الدين المعروف بحسام زاده الرومي ، الذي يقول عنه : "مفتي الدولة العثمانية ، وواحد الدهر الذي باهت بفضله الأيام ، وتاهت بمعارفه الأزمان ، وكان عالماً متبحراً ، كثير الإحاطة بمواد التفسير والعربية ، جم الفائدة .."([2]) .

ليس ذلك فحسب بل وجدنا العديد من السلاطين والحكام يتقنون العربية ، ويقرضون الشعر ، من ذلك قول المحبي في ترجمته للسلطان أحمد بن محمد بن مراد([3]) : "كان سلطاناً عظيم القدر ، جميل الذكر ، محباً للعلماء وآل البيت ، متمسكاً بالسنة النبوية ، حسن الاعتقاد، معاشراً لأرباب الفضائل ، سمح الكف جواداً ، لا تزال إحساناته للفقراء واصلة ،

([1]) خلاصة الأثر 356/3 .

([2]) السابق 351/2 – 352 .

([3]) هو السلطان أحمد بن محمد بن مراد ، كان سلطاناً عظيم القدر جميل الذكر ، مُحباً للعلماء وآل البيت ، متمسكاً بالسنة النبوية .. هذا ولد سنة 999 وتوفي سنة 1026 هجرية . راجع ترجمته في : خلاصة الأثر 284/1 – 292 .

وعطاياه لأرباب ذوي الاستحقاق مترادفة ، وكان مائلاً إلى الأدب والمحاضرات ، وله شعر بالتركية .. ومما يروى له من الشعر العربي قوله ، وأجاد :

ظبيٌ يَصُولُ وَلا اتِّصَالَ إِلَيْهِ ... جرَحَ الفُؤَادَ بِصَارِمَيّ لَحْظَيْهِ
مَا قَامَ مُعْتَدِلاً وَهَزَّ قَوَامَهُ ... إلاَّ تَهَتَّكَتْ السُّتُوْرُ عَلَيْهِ
يَسْقِي المُدامةَ مِنْ سُلاَفَةِ رِيْقِهِ ... وَيَخُصُنَا بِالْغُنْجِ مِنْ جفْنَيْهِ
عَيْنَاهُ نَرْجِسُنَا ، وآسَ عِذَارِهِ ... رَيْحَانُنَا ، والوَرْدُ مِنْ خَدَّيْهِ"([1])

كذلك السلطان عبد الحميد الأول بن السلطان أحمد خان الذي اشتهر بقصيدته النبوية التي نُقشت على الحجرة النبوية الشريفة سنة 1191 هجرية ، ومنها قوله([2]) :

يَا سَيِّدي يَا رَسُولَ الله خُذْ بِيَدِي ... مَا لِي سِوَاكَ وَلا أَلْوِي عَلَى أَحَدِ
فَأَنْتَ نُورُ الهُدَى فِي كُلِّ كَائِنَةٍ ... وَأَنْتَ سِرُّ النَّدى يَا خَيْرَ مُعْتَمَدِ
وَأَنْتَ حَقّاً غِيَاثُ الخَلْق أَجْمَعِهِم ... وَأَنْتَ هَادي الوَرَى لله ذي السَّدَدِ
يَا مَنْ يَقُوْمُ مَقَامَ الحَمْدِ مُنْفَرِداً ... لِلْوَاحِدِ الفَرْدِ لَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَلِدِ

وكما تعلم الفرس والأتراك اللغة العربية ، وأفادوا من العلوم والمعارف العربية والإسلامية ، كذلك أطل العديد من العلماء والأدباء على الثقافتين الفارسية والتركية ، حيث أضحت إجادة اللغتين إضافة إلى العربية شرطاً من شروط الوصول إلى المناصب الرفيعة في الدولة ، وقد أشار المحبي في تراجمه إلى الكثير من العلماء والأدباء الذين أجادوا

([1]) خلاصة الأثر 284/1 – 285 .

([2]) انظر القصيدة كاملة في : عمر موسى باشا : تاريخ الأدب العربي – العصر العثماني ، ص 38 – 39 .

اللغتين ، وأثروا من ثقافة اللغتين ، كابن النقيب([1]) ، وبدر الدين البوريني الذي تعلم "اللغة الفارسية حتى صار يتكلم بها كأنه أعجمي" ، "ثم تعلم في آخر حاله التركية ، وكان في الفارسية أبرع ، ونظم ونثر" ، وفي إتقانه للغة الفارسية قال([2]) :

تَعَلَّمْتُ لَفْظَ الأعْجَمِيّ وإنَّنِي ... مِنَ العربِ الغُرَبَاءِ لا أتَكَتَّمُ
وَمَا كانَ قَصْدِي غَيْرَ صَوْنَ حَدِيْثِكُم ... إذا صِرْتُ مِن شَوْقِي بِهِ أتَرَنَّمُ
وإنْ كُنْتُ بَيْنَ المُعْجِمِيْنَ فَمُعْرِبٌ ... وَإنْ كُنْتُ بَيْنَ المُعْرِبِيْنَ فَمُعْجِمُ
فَأغْدوا بِأشْوَاقِي إلَيكُم مُتَرْجِماً ... وَسِرُّكم في خَاطِرِي لَيْسَ يُعْلَمُ

وقد أطل العرب من خلال معرفتهم باللغة الفارسية على ثقافة آسيا الوسطى وتراثها الفكري ، كما انفتح الفرس والأتراك على الثقافة العربية الإسلامية ، ونهلوا من ينابيعها ، وقد رأينا الألفاظ والعبارات العربية تقتحم اللغتين ، والأتراك يكتبون بالحروف العربية([3]) .

كما بث تنوع البيئات الثقافية في الممالك العثمانية دماءً جديدة في الحياة الأدبية والفكرية ، وأوجد جيلاً من الأدباء والعلماء من أبناء القوميات غير العربية ، واستمر تدفق حركة التأليف والإبداع ، وعجَّت المكتبة العربية الإسلامية بمئات الكتب والموسوعات([4]) .

([1]) هو عبد الرحمن بن محمد بن كمال الدين محمد الحسيني ، أديب دمشقي ، له كتاب بعنوان "الحدائق والفرق" ، وله ديوان شعر مطبوع ، ولد سنة 1048 هـ ، وتوفي سنة 1081 هجرية . راجع ترجمته في: خلاصة الأثر 2/ 390 – 404 .

([2]) خلاصة الأثر 52/2 .

([3]) انظر : تاريخ الأدب العربي – العصر العثماني 40 .

([4]) تكفي مراجعة كتاب المحبي "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر" ، أو كتاب شهاب الدين الخفاجي "ريحانة الألبا وزهرة الحيا الدنيا" ، لتخيل حجم حركة التأليف ، وعدد جيش الأدباء والعلماء في ذلك العصر .

الفصل الثاني

الفنون الشعرية

كلمة لابد منها :

لم يُظلَم عصر من عصور العربية كما ظُلِم العصر المملوكي ، فقد شكك العديد من الدارسين في حكامه وغمطوهم حقوقهم ، وحكموا على نتاجه العلمي والأدبي بالضعف والانحطاط ، وأغفلوا ذكر فرسان الحلبتين ، من علماء وأدباء وشعراء .

اختلفوا حول إخلاص حكامه للإسلام والمسلمين ، ومدى معرفتهم باللغة العربية ، وهل تهيأت الأسباب لوصولهم للحكم كما تهيأت للخلفاء الأمويين والعباسيين ، وكذلك للفاطميين في مصر والمغرب العربي والأيوبيين في مصر والشام قبلهم ، أم أنهم قوة احتلال اغتصبت الحكم ثم سامت الناس خسفاً ، وإذا حدثنا التاريخ عن جور أحد سلاطين المماليك ، أو بعضهم ، فهل لم يحدثنا عن جور بعض حكام الدول السابقة ؟!

أظن أن الأمر معلقٌ على أصولهم غير العربية ، وما مسهم من رق في بداية حياتهم ، ثم كيف أضحوا سادة وحكاماً ، وكيف يحوزون شرف الدفاع عن العروبة والإسلام ، إضافة إلى حقد أعداء الأمة عليهم ، وامتداد هذا الحقد إلى أحفادهم الصليبيين ، الذين سعوا جاهدين إلى تشويه هذه الحقبة المشرقة ، فدسوا المفاهيم الخاطئة في مناهج التعليم في مطلع العصر الحديث[1]، هذه المفاهيم التي تُقرر سلفاً أن المماليك اغتصبوا السلطة ، وأن عصرهم عصر تخلف وانحطاط . ونشير في هذا المقام

---

(1) وقع العالم العربي في قبضة الاحتلال الصليبي بعد سقوط الخلافة العثمانية عام 1351هـ / 1922م ، كما رأينا في ثنايا الحديث عن الحياة السياسية ، وفي سنة 1945م وقّعت بريطانيا اتفاقية الجلاء عن مصر ، ثم حصل السودان منها على حق تقرير المصير في سنة 1953م ، وفي سنة 1962م حصلت الجزائر على استقلالها من فرنسا ، وكذلك نعمت اليمن بالحرية سنة 1962م ، والعراق سنة 1958م .

إلى "السير دنلوب" الذي خطط سياسة التعليم للدول العربية ، فعندما جاء "كرومر" إلى مصر كأول حاكم بريطاني فيها قال : "إن مهمة الرجل الأبيض الذي وضعته العناية الإلهية على رأس هذه البلاد هو تثبيت دعائم الحضارة المسيحية إلى أقصى حد ممكن ، بحيث تصبح هي أساس العلاقات بين الناس"([1]) ، ولتحقيق هذه الغاية عيَّن قسيساً حديث التخرج من كلية اللاهوت بلندن يُدعى "دنلوب" في منصب مستشار وزارة المعارف المصرية ، وجعل في يده كل السلطات الفعلية لوزارة المعارف ليتمكن من وضع سياسة تعليمية تحقق أهداف الصليبيين .

وقد اجتهد القس "دنلوب" في تحقيق رؤية قائده "كرومر" ، مستهدفاً المحاور الرئيسة الثلاثة للعملية التعليمية ، المناهج الدراسية ، والأساتذة ، والتلاميذ . فعمد إلى دس سموم حقده الصليبي في المناهج الدراسية ، وغرس مفاهيم خاطئة عن بعض الحقب التاريخية المشرقة بانتصار الإسلام والمسلمين ، خاصة العصر المملوكي الذي استأصل الوجود الصليبي من الشرق الإسلامي ، ساعياً إلى تجهيل التلاميذ ، وصرفهم عن تراث أمتهم المجيد ، وكما يرى محمد قطب فإن سياسة "دنلوب" في تخطيط المناهج التعليمية لم تتوقف عند تهميش اللغة العربية ، وإبعاد الطلاب عن تعاليم دينهم الحنيف ، وتشويه تاريخ أمتهم ، وصرف أنظارهم عن تراثها المجيد ، واستبعاد الهجمات الصليبية على العالم الإسلامي وما ارتكبته من جرائم من المناهج الدراسية ، بل تجاوزت ذلك إلى مكافأة المدرسين المتميزين في تطبيق سياسة التغريب بإرسالهم إلى

([1]) محمد قطب : واقعنا المعاصر ، 216 .

إنجلترا ، ليزداد صقلهم ويُصاغوا من جديد صياغة أدق وأشمل ، ليستفاد منهم على نطاق أخطر ، فإذا ما عادوا يوضعون في مراكز التوجيــه ، ليكون أثرهم في الإفساد أشمل وأوسع حتى إذا صار أحدهم فـي نهايــة المطاف وزيرًا للمعارف حطم من مقدسات قومه ، وفعل ما لم يكن يجرؤ "دنلوب" على فعله..([1]) .

لقد حققت سياسة القس "دنلوب" نتائجها ، وأصبحنا نرى العديد من الدارسين والباحثين العرب يقررون سلفاً ما أراده الصليبيون من صـــفات لهذا العصر ، ويجتهدون في التدليل عليها . وقـد اعتــرف الــصليبيون المحدثون بذلك ، وتفاخروا بما حققوه ، كمـا نــرى فـي قـول القـس "زويمر"([2]) مقرر مؤتمر المبشرين الذي عُقد في القاهرة عــام 1906م : "ليست مهمتنا تنصير المسلمين ، فهذا شرف ليسوا جديرين به ، ولكـن مهمتنا هي صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام ، وفي ذلـك نجحنـا نجاحاً باهراً بفضل مدارسنا التبشيرية ، والسياسة التعليمية التي وضعناها للبلاد الإسلامية .."([3]) .

وتبقى الحقيقة التاريخية التي تقرر أن المماليك ليسوا قوة احتلال ، وأن عصرهم الممتد من عام 648 حتى 923 هجرية لم يــسوده الجهــل والتخلف ، فهم مماليك السلطان الأيوبي الملك الصالح نجم الدين أيوب ،

([1]) راجع : واقعنا المعاصر 217 – 234 .

([2]) زويمر مبشر بروتستانتي كان له نشاط واسع في البلاد الإسلامية ، وأوصى قبل موته أن يدفن في مقــابر اليهود ، مما يدل على أصله اليهودي ، وحقده اليهودي والصليبي على المسلمين .

([3]) واقعنا المعاصر 197 ، وانظر أيضاً ما قاله في المؤتمر التبشيري الذي عُقد في القــدس ســنة 1935م . ص386 .

الذين اصطفاهم واجتهد في تنشئتهم تنشئة عربية إسلامية ، ودَرَّبَهم على الفروسية وفنون القتال ليكونوا قوام جيشه وذخر وطنه ، وبعد وفاة سلطانهم انتقل الحكم إليهم بطريقة طبيعية ، إذ حكمت بنت جلدتهم "شجر الدر" ، التي مسها الرق كما مسهم ، ومع بداية حكمها سنة 648 هجرية بدأ ما اصطلح المؤرخون والدارسون على تسميته باسم العصر المملوكي.

وأنهم كانوا خير خلف لخير سلف إذ تصدوا للزحف المغولي الهمجي على ديار المسلمين ، وقطعوا أيدي الدمار ، واجتثوا وجودهم من الشرق الإسلامي بأسره ، وكذلك قضوا على أحلام الصليبيين في البلاد التي تفيض عسلاً ولبناً([1]) ، واستأصلوا إماراتهم وحصونهم من بلاد الشام واحداً تلو الآخر .

أما اتهام هذا العصر باضمحلال الثقافة وانحطاط مستوى الأدب ، فهو اتهام لا أساس له من الصحة ، إذ لم يترك عصر من عصور العربية موسوعات وكتباً في شتى فروع المعرفة أكثر من هذا العصر ، ولم يضم عدداً من العلماء والأدباء أكبر من عددهم ، ألم يرث حضارتي المشرق والمغرب الإسلامي ، ويحسن وفادة العلماء والأدباء الفارِّين من وجه المغول في بغداد والفرنجة الصليبيين في الأندلس ؟! .

([1]) حث البابا "أوربان الثاني" المؤتمرين في مجمع الأساقفة بمدينة كليرمونت عام 1095م على غزو المشرق الإسلامي ، ومما جاء في هذا الخطاب قوله : "وخلصوا الأراضي المقدسة من أيادي المختلسين ، وأنتم املكوها لذواتكم ، فهذه الأرض كما قالت التوراة تفيض لبناً وعسلاً .." . راجع كتابنا : قصة الحروب الصليبية ، الطبعة الأولى ، غزة 1992م ، ص 13 .

لقد أسهب القدماء في الحديث عن دور العلم وحركة التأليف ومجالس الأدباء في مدن مصر والشام ، ويكفي في هذا المقام أن نذكر قول عبد الرحمن بن خلدون : "مصر أم العالم ، وإيوان الإسلام ، وينبوع العلم ، ومنارة الأدباء الفارين من وجه المغول حتى كثر روادها ، واكتظت جوانبها وأنديتها بطلاب العلم والمعرفة"([1]) .

أما الحركة الأدبية فلم يختلف أداؤها عن أداء الحركة العلمية ، وقد رأينا اهتمام سلاطين المماليك باللغة العربية وعلومها ، وكيف اعتنوا بأمراء البيان وأسندوا إليهم أرفع المناصب في دواوين الدولة ، وحازوا احترام الناس حتى أضحوا قدوة وأنموذجاً يحفز الشباب على إتقان العربية ويجيدون البيان لعلهم يحوزون مكانة مثل مكانتهم .

وبالرغم ما يُقال عن انصراف السلاطين والأمراء عن منح الأعطيات والهدايا للشعراء ، وأن الشعر لم يَعُد حرفةً يرتزق منها الشعراء ، فقد استمر نهرُ الشعر العربي دفاقاً ، وحافظ على مكانته في نفوس الخاصة والعامة ، وكان التوجه الديني السائد في ذلك العصر باعثاً من بواعثه ، ورافداً من أهم روافد قوّته ، حيث وجد في ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه معيناً لا ينضب ، ووسمت الثقافة الإسلامية معانيه وألفاظه وصوره بالميسم الديني . كذلك وجد في أعمال السلاطين والأمراء ، وبطولاتهم في التصدي لأعداء الدين والأمة ما أعانه على الارتباط بالطبع الصادق أكثر من ارتباطه بالرياء وبهرج الصنعة الزائفة .

([1]) مقدمة 245 .

أولاً : المديح :

المديح هو حُسْن الثناء ، ووصف النـــاس بـــالأخلاق الحميـــة ، والإشادة بفضائلهم وأعمالهم المجيدة ، وقد عرف الشاعر العربي منـــذ جاهليته هذا الفن ، وعبر في شعره عمَا أعجبه من صفات بعض النـــاس وأعمالهم ، وإذا كان الغالب في شعر ذلك العصر المـــدح عـــن قناعـــة باستحقاق الممدوح الثناء ، وكان الشعر نابعاً من قرارة نفس الـــشاعر ، يمدح الرجل بما فيه من صفات ، لا يتزلف لكي يتكسب بشعره أو ينـــال العطايا ، فإن المديح المبني على الرياء والتزلف للممدوح بما ليس فيـــه من صفات كان موجوداً بقدر أقل([1]) .

وقد نهى النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن الرياء والكذب ، وحـــثَّ على التصدي للمتزلفين من الشعراء في قوله : "إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا في وجوههم التراب"([2]) ، وقال صلى الله عليه وسلم في توضيح موقـــف الإسلام من الشعر : "إنَّما الشِّعرُ كلامٌ مُؤَلَّفٌ فما وافقَ الحقَّ منـــه فهـــو حَسَنٌ ، وما لم يوافِقِ الحقَّ منه فلا خيرَ فيه"([3]) .

ومنذ العصر الأموي انتشرت ظاهرة التكسب بالـــشعر ، ورفـــع الشعراء قدر الوضيع ، وجعلوا الجبان شجاعاً ، والبخيل كريماً ، وذلك

([1]) راجع : درويش الجندي : ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقـــده ، طبعـــة دار نهـــضة مـــصر 1969م ، ص 43 – 64 .

([2]) على بن أبي بكر الهيثمي : مجمع الزوائد ، طبعة دار الريان للتراث ، القاهرة 1407 هـــ ، 117/8 .

([3]) أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق محمد قرقـــزان ، الطبعـــة الأولى ، دار المعرفة ، بيروت 1988م ، 85/1 .

مقابل ضريبة يدفعها الممدوح للشاعر وإلاّ انقلب عليه وهجاه بما هو فيه من صفات وأكثر .

وأظن أن الشعراء قالوا في المديح أكثر مما قالوا في باقي فنون الشعر العربي ، وقد سار شعر المديح الصادق في ظل شعر التكسب حتى جاء العصر المملوكي ، فاشتكى الشعراء من كساد سوق الشعر ، لأنه لم يَعُد حرفة يُرْتَزَقُ منها ، من ذلك قول أبي الحسين الجزار(1) :

لاَ تَلُمْنِي يَا سَيِّدِي شَرَفَ الدِّيْـــ ـــنِ عَلَــى أَنْ رَأَيْتَنِــي قَــصَّابَا
كَيْفَ لا أَعْشَقُ الجِزَارَةَ مَا عِشْـــ ـــتُ حَيَــاتِي وَأَرْفُــضُ الآدَابَــا
وَبِهَا صَارَتْ الكِــلابُ تَرْجِيْـــ ـــنِي وَبِالشِّعْرِ كُنْتُ أَرْجو الكِلابَا

وكذلك ما يشتمل عليه قول البوصيري(2) :

لاَ تَكِلْنِــي إِلَــى سِــوَاكَ فَأَخْيَــا رُ زَمَــانِي لا يَمْنَحُــوْنَ خِيَــارَه
وَوُجُــوهُ القُــصَّادِ فِيْــهِ حَدِيْــدٌ وَقُلُوْبُ الأَجْــوَادِ فِيْــهِ حِجَــارَه

وقريب من هذا المعنى قول عفيف الدين علي بن عدلان(3) :

لا تَعْجَبَنَّ إذا مَــا فَاتَــكَ المَطْلَــبْ وَعَوِّدِ النَّفسَ أَنْ تَشْقَى وَأَنْ تَتْعَبْ
إِنْ دَامَ ذَا الفقرُ في الدُّنيا فَلاَ تَعْجَبْ مَاتَ الكِرَامُ وَمَا فِيْهِم فَتَىً أَعْقَبْ

---

(1) هو يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد بن علي ، جمال الدين أبو الحسين الجزار ، ولد في بالفسطاط سنة 603 هجرية ، وقد عمل في الجزارة مهنة والده بعد أن عجز عن التكسب بشعره ، توفي سنة 679 هجرية . انظر ترجمته في : محمد بن أحمد الكتبي : فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس طبعة دار الثقافة ، بيروت 1973م ، 277/4 – 293 .

(2) هو أبو عبد الله ، شرف الدين ، محمد بن سعيد بن حماد ، ولد في قرية دلاص ببني سويف بمصر سنة 608 هـ ، وتوفي في القاهرة سنة 695 هجرية . راجع ترجمته في كتابنا : البوصيري شاهد على العصر المملوكي ، ص 7 وما بعدها .

(3) هو عفيف الدين أبو الحسن عليّ بن عدلان بن حماد بن عليّ الموصليّ النحوي المترجم ، مات بمصر سنة 666هجرية . النجوم الزاهرة 197/7 .

وقول ابن نباته المصري([1]) :

لا عَارَ فِي أَدَبِي إِنْ لَمْ يَنَلْ رُتَباً وإِنَّمَا العَارُ فِي دَهْرِي وَفِي بَلَدِي
هَذا كَلامِي وَذَا حَظِّي فَيا عَجَباً مِنِّي لِثَرْوَةِ لَفْظٍ وَافْتِقَارِ يَدِ

أضحى الشعر في العصر المملوكي تعبيراً صادقاً عن أحاسيس الشاعر تجاه ممدوحه ، وراجت سوق المديح الذي يُمجِّد البطولة والجهاد في سبيل الله ، وتغنَّى الشعراء بانتصارات قادة المسلمين على الصليبيين والتتار ، وخلَّدوا صفاتهم الحميدة وأعمالهم الخيرة ، من ذلك ابتهاج المسلمين بانتصار سيف الدين قطز على التتار في عين جالوت سنة 658 هجرية ، كما نرى في قول شرف الدين الأنصاري([2]) :

رُعْتَ العِدا فَضَمِنْتَ ثَلَّ عروشِها وَلَقِيْتَهَا فَأَخَذْتَ ثَلَّ جيوشِهَا
فُقْتَ الملوكَ بِبَذْلِ مَا تَحْوِيْهِ إِذْ خَتَمَتْ خَزَائِنَها عَلى مَنْقُوشِهَا
فَطَوَيْتَ عَنْ مِصْرَ فَسِيْحَ مَرَاحِلٍ مَا بَيْنَ بِرْكَتِهَا وبَيْنَ عَرِيْشِهَا
حَتَّى حَفِظْتَ على العِبَادِ بِلادَهَا مِن رُوْمِهَا الأَقْصَى إِلى أَحْبُوشِهَا
فَرَشَتْ حماه لِوَطءِ نَعْلِكَ خَدَّهَا فَوَطِئْتَ عَيْنَ الشَّمْسِ مِنْ مَفْرُوشِهَا

([1]) هو الشاعر والناثر المشهور أبو بكر ، جمال الدين ، محمد بن شمس الدين محمد بن شرف الدين محمد الجذامي الفارقي ، يعود أصله إلى قبيلة جذام العربية ، أقام أجداده في الشام ، وقد اشتهر منهم عبد الرحيم بن نباتة ، الخطيب الذي ذاع صيته في عصر سيف الدولة الحمداني . ولد في القاهرة سنة 686 وتوفي فيها سنة 768 هجرية .

([2]) قال القصيدة بحماة حينما وصلها قطز منتصراً . تاريخ ابن الوردي 201/2 . والشاعر هو شيخ شيوخ حماة ، شرف الدين ، عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن بن محمد بن منصور بن خلف الأنصاري الدمشقي ، المعروف بابن الرّقا ، ولد سنة 586 ، وتوفي ودفن بحماة سنة 662 هجرية . راجع ترجمته في : النجوم الزاهرة 231/7 . وفوات الوفيات 354/2 - 363 .

وكذلك قول شهاب الدين محمود الحلبي(1) في مدح السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس والإشادة بانتصاره على التتار والروم الذين أعادوا تجمعهم عند نهر جيحان(2) :

سِرْ حَيْثُ شِئْتَ لَكَ المُهَيْمِنُ جَارُ ... وَاْحكُمْ فَطَوْعُ مُـرَادِكَ الأَقْـدَارُ
لَمْ يَبْقَ لِلـدِّيْنِ الـذي أَظْهَرتَـهُ ... يَا رُكْنَهُ عِنْـدَ الأَعَـادِي ثَـارُ
لَمَّا تَرَاقَصَتْ الرّؤوسُ وحَرَّكَـتْ ... مِنْ مُطْرِبَـاتِ قِسيِّكَ الأَوْتَـارُ
خُضْتَ الفُراتَ بِسَابِحٍ أَقْصَى مَنَى ... هُوْجَ الصَّبَا مِـن نَعْلِـهِ آثَـارُ
حَمَلَتْكَ أَمْوَاجُ الفُرَاتِ ومَنْ رأَى ... بَحْـراً سِـوَاكَ تَقِلُّـهُ الأَنْهَـارُ
وتَقَطَّعَتْ فِرَقاً ولَمْ يَـكُ طَوْدَهَـا ... إذْ ذَاكَ إلاّ جَيْـشُكَ الجَـرَّارُ
رَشَّتْ دِمَاؤُهُم الصَعَيْدَ فَلَمْ يَطِـرْ ... مِنْهم عَلَى الجَيْشِ السَّعِيْدِ غُبَـارُ
شَكَرَتْ مَسَاعِيْكَ المَعَاقِلُ والوَرَى ... والتُّـرْبُ والآسَـادُ والأَطْيَـارُ
هَذِي مَنَعْتَ وهَـؤلاءِ حَمَيْـتَهُم ... وَسَقَيْتَ تِلْكَ وَعَـمَّ ذَا الإِيْـسَارُ
فَلأَمْلأَنَّ الـدَّهْرَ فِيْـكَ مَـدَائِحاً ... تَبْقَى بَقِيتَ وتَـذهَبُ الأَعْـصَارُ

لقد إلتفَّ الشعراء حول أبطال المسلمين الـذين خلَّـصوا الـبلاد والعباد من شرور أعداء الدين ، التتار والصليبيين ، وكان الشاعر شهاب الدين محمود أحد الذين لهجوا بذكر انتصارات المماليك في الشام ، يخلِّد فتح السلطان المنصور قلاوون الألفي حصن المرقب وقضى على مَن فيه من الصليبيين سنة أربع وثمانين وستمائة هجرية ، ويمتدح قوة عريكـة

هو شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان بن فهد بن محمود الحلبي الدمشقي ، ولد سـنة 644 هــ ، تولى ديوان الإنشاء بعد موت محي الدين بن عبد الظاهر ، وتوفي سنة 725 هجرية ، سيأتي ذكره بتوسع عند الحديث عن كتابه حسن التوسل إلى صناعة الترسل .

النجوم الزاهرة 143/7 - 144 . وانظر أيضاً : محمد بن شاكر الكتبي : فوات الوفيات 240/1 .

هذا السلطان ، وقوة إيمانه التي تجلّت في ادخار الله عزّ وجلّ شرف فتح هذا الحصن له دون غيره من السلاطين والأبطال الأقوياء ، مـن ذلـك قوله([1]) :

اللهُ أكبَـرُ هَـذا النَّـصرُ والظَّفَـرُ ... هَذَا هُوَ الفَتْحُ لا ما تَزْعُمُ السِّيَرُ
هَذَا الَّذِي كَنَتْ الآمَالُ إنْ طَمَحَتْ ... إلى الكَوَاكِبِ تَرْجُوهُ وَتَنْتَظِرُ
فَانْهَضْ وَسِرْ وَامْلِكْ الدُّنْيَا فَقَدْ نَحلَتْ ... شَوْقاً مَنابِرُها وَارْتَاحَتْ السُّرُرُ
كَمْ رَامَ قَبْلَكَ هَذا الحِصْنَ من مَلِكٍ ... فَطَالَ عَنْهُ وَمَا فِي بَاعِهِ قِصَرُ
وَكَيْفَ تَمْنَحه الأَيَّامُ مَمْلَكَةً ... كَانَتْ لِدَوْلَتِكَ الغَرَّاءِ تُدَّخَرُ
وَكَيْفَ يَسْمو إِلَيْها مَنْ تَأَخَّرَ عَن ... إِسْعَادِه مُنْجِدَاك القَدْرُ وَالقَدَرُ

وفي مدح السلطان قلاوون – أيضاً – بعد فتح طرابلس سنة تسع وثمانين وستمائة للهجرة يتوجه الشهاب محمود إلى الله عزّ وجلّ بالشكر على نعمة النصر والتأييد التي خص السلطان بها ، ويتضرع إليه أن يُديم عنيه النصر والتأييد([2]) :

عَلَيْنَا لِمَنْ أَوْلاكَ نِعْمَتَهُ الشُّكْرُ ... لأَنَّكَ للإِسلامِ يا سَيْفَهُ ذُخْرُ
ومِنَّا لَكَ الإِخْلاصُ في صَالِحِ الدُّعا ... إلى مَنْ لَهُ فِي أَمْرِ نُصرَتِكَ الأَمْرُ
وَللهِ في إِعْلاءِ مُلْكِكَ فِي الوَرَى ... مُرَادٌ وَفِي التَّأْيِيدِ يَوْمَ الوَغَى سِرُّ
أَلا هَكَذا يا وَارِثَ المُلْكِ فَلْيَكُنْ ... جِهَادُ العِدا لا ما تَوَالَى بِهِ الدَّهْرُ

واختصاراً لا نكاد نجد سلطاناً أو أميراً أو قائداً من قادة المماليك الذين تصدوا للتتار والصليبيين إلا حاز إعجاب الشعراء ، وحظي بما خلّد ذكره من المدح الصادق ، ليس ذلك فحسب بل امتدح الشعراء العديد من

([1]) النجوم الزاهرة 7/269 – 270 .
([2]) السابق 7/275 .

رجال الدولة المملوكية في مصر والشام لحُسن خلقهم وتقواهم ، وأشادوا بعدلهم ، وحُسن إدارتهم ، وسهرهم على راحة مواطنيهم ، من ذلك ما نراه في قول البوصيري([1]) :

فَطَهَّرَ وَجْهَ الأَرضِ مِنْ كُلِّ فَاسِدٍ ... وَمَا خِلْتُهُ مِنْ قَبْلِهِ يَتَطَهَّرُ
وَمَهَّدَهُ للسَّالِكِيْنَ مِنَ الأذى ... فَلَيْسَ بِهِ الأَعْمَى إذا سَارَ يَعْثُرُ
فَشَرِّقْ وَغَرِّبْ في البِلادِ فَكَمْ لَهُ ... بِهَا عَابِرٌ يُثْنِي عَلَيْهِ وَيَعْبُرُ
وَمَا كُلُّ وَالٍ مِثْلُهُ فِيْهِ يَقْظَةٌ ... وَلاَ قَلْبُهُ بِاللهِ قَلْبٌ مُنَوَّرُ
أَنَامَ الرَّعَايَا فِي أَمَانٍ وَطَرْفُهُ ... لِمَا فِيْهِ إِصْلاَحُ الرَّعِيَّةِ يَسْهَرُ
فَلاَ الخَوْفُ مِنْ خَوْفٍ أَلَمَّ بِأَرْضِهِ ... وَلاَ الشرُّ فِيْهَا بِالخَوَاطِرِ يَخْطُرُ

ويمدح عمر بن الوردي([2]) المماليك عامة ، ويشير إلى استقرار حال البلاد في عصرهم ، حيث يصفهم بالسعد والعدل بعد أن شبههم بالملح الذي لا يستغني الناس عنه ، مبيناً أنه لا يعرف فضلهم إلا مَن جَرَّب ظلم المغول ، ويدعو لهم بطول البقاء([3]) :

التُّركُ ملحُ الأَرضِ في عَصْرِنا ... والفلكُ الدَّائِرُ في سَعدِهِمْ
تَعرفُ مَن يعرفُ مِقْدَارَهُمْ ... مَنْ ذَاقَ جَوْرَ المُغْلِ([4]) مِنْ بَعدِهِمْ
اللهُ لاَ يُوحِشُ مِنْ أُنْسِهِمْ ... فَجَوْرُهُمْ أَهْوَنُ مِنْ فَقْدِهِمْ

([1]) ديوان البوصيري ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، الطبعة الثانية ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة 1973م ، ص 160 .

([2]) هو زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس الوردي ، المعروف بابن الوردي المتوفى سنة 749 هجرية ، صاحب كتاب تاريخ ابن الوردي . انظر ترجمته في : محمد بن شاكر الكتبي: فوات الوفيات 157/3 – 160 .

([3]) ديوان ابن الوردي ، مطبعة الجوائب ، القسطنطينية 1300هـ ، ص 266 .

([4]) المغل : المغول .

كذلك حاز العديد من رجال الدين والعلماء والأدباء إعجاب الشعراء فامتدحوهم ، وفي قصائد طوال عددوا مناقبهم وصفاتهم ، وإن كان هذا الإعجاب لا يخلو أحياناً من رجاء أو طمع في عطاء ، فإنه يشتمل غالباً على الأحاسيس الصادقة ، والحب الذي لا ينقلب كرهاً وهجاءً إذا عزّ العطاء ، كما هو معروف عن بعض شعراء التكسب في العصور السابقة ، ومعاني هذا المدح متنوعة ، ونماذجه كثيرة جداً ، نذكر منها قول الشاعر ابن مليك الحموي[1] في مدح قاضي القضاة شهاب الدين أبو العباس المعروف بابن فرفور[2]:

وللهِ سِرٌّ في عُلاكَ فَمَا عَسى ... يَقُولُ حَسودٌ أو عَدوٌّ يُجَاهِرُ
وأَضْحَتْ دِمَشْقُ الشَّامِ بِالحُسْنِ جَنَّةً ... عَلَيْهَا جَمَالٌ مِنْكَ بَاهٍ وبَاهِرُ
وَحَاكَتْ لَها أَيْدي السَّحَابُ مَطَارِفاً ... مُوشَّعَةً قَدْ دَبَّجَتْهَا الأَزاهِرُ
وَرَوْضُ الهَنا بِالرّقِ نَقَّرَ طَيْرُهُ ... وغَنَّى على العِيدانِ والرِّيْحُ زَامِرُ
وجَامِعُها بالحُسْنِ أَصْبَحَ مُفْرَداً ... وقَدْ أَعْرَبَتْ بِالوَصْفِ عَنْهُ الضَّمَائِرُ
وصَارَ عَلَيْهِ مِنْ شِعَارِكَ رَوْنَقٌ ... وفِيْهِ لَقَدْ أَضْحَتْ تُقَامُ الشَّعَائِرُ
ومنبَرهُ لمَّا بِهِ قُمْتَ خَاطِباً ... تَمَنَّتْ بِأَنْ تَسْعَى إِلَيْهِ المَنَابِرُ
فَهذا هو البَحْرُ الذي عن نَوَالِهِ ... مَوَارِدُهُ قَدْ أَعْرَبَتْ والمَصَادِرُ
أَخُو الجودِ مِنْ كَفَيِّهِ يُستَمْطَرُ النَّدى ... وَما هو إلا الغَيْثُ بِالجُودِ مَاطِرُ

([1]) هو علاء الدين ، علي بن محمد بن علي بن عبد الله المعروف بابن مليك الحموي ، ولد بحماة سنة 840 وتوفي ودفن بدمشق سنة 917 هجرية . انظر ترجمته في : نجم الدين محمد بن محمد الغزي : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، تحقيق جبرائيل سليمان حبور ، الطبعة الثانية ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت 1979م ، 261/1 .

([2]) ديوان ابن مليك الحموي ، المطبعة العلمية ، بيروت 1312هـ ، ص 62 .

لقد راعى الشاعر الصفات التي تناسب مقام الممدوح ومكانته الاجتماعية والدينية ، فهو القاضي الذي تزهو به دمشق ، والخطيب التقي المفوه الذي يباهي به مسجده ، وتتوق إليه المنابر ، ثم لا ينسى الشاعر التنويه عن كرم ممدوحه وسخائه .

كذلك ترك شعراء العصر المملوكي كمًّا هائلاً من شعر الثناء على العلماء والأدباء ، ومدحوهم بغزارة علمهم وبراعة فنهم ، وما استحبوا من صفاتهم ، وفي هذا المقام نذكر بيتين مما قيل في مدح أبي العباس أحمد بن خلِّكان[1] من شعر عمر بن إسماعيل الفارقي[2] مبتهجاً بعودة ابن خلكان إلى قضاء دمشق ، قال[3] :

أَنْتَ فِي الشَّامِ مِثْلُ يُوْسُفَ فِي مِصْـ ـرٍ وَعِنْدِي أَنَّ الكِرَامَ جِنَاسُ
وَلِكُلٍّ سَبْعٌ شِدَادٌ وَبَعْدَ السَّبْـ ـعِ عَامٌ فِيْهِ يُغَاثُ النَّاسُ

([1]) هو قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس ، وقال صاحب الكوكب الثابت هو أبو بكر ، أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلِّكان ، ولد بإربل سنة 608 هجرية في بيت معروف بالفقه والمناصب الدينية ، كان إماماً عالماً فقيهاً أديباً شاعراً، معدوم النظير في علوم شتى ، وهو صاحب التاريخ المشهور "وفيات الأعيان" ، تولى قضاء دمشق مرتين ، الأولى سنة 660 تقريباً ، ثم عُزل وذهب إلى القاهرة مدة ، وناب فيها في القضاء عن بدر الدين السنجاري ، وأفتى بها ودرَّس ، ثم أُعيد إلى قضاء الشام وسُرَّ الناس بعودته .. وتوفي في دمشق سنة 681 هجرية . للاستزادة راجع ترجمته في : النجوم الزاهرة 299/7 – 301 . والسلوى الأندلسي ، عبد القادر بن عبد الرحمن : الكوكب الثابت في أخبار الشعراء وغيرهم من ذوي المناقب . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 325 تاريخ تيمور ص 316 – 319 .

([2])

([3]) النجوم الزاهرة 300/7 .

وقد شاركت المرأة في فن المديح كما شاركت في غيره من فنون الشعر ، وفي هذا المقام نورد بعض ما قالته عائشة الباعونية([1]) في مدح شيخ الأدباء السيد الشريف عبد الرحيم العباسي القاهري([2]) :

إمامٌ حوَى مِنْ كُـلِّ عِلْـمٍ لُبَابَـهُ فَحَجَّ لِعَالِي بَابِـهِ كُـلُّ ذِي قَـدْرِ
وَأَصْبَحَ فِيْ بَحْرِ الحَقَائِقِ غَائِصاً وَمُسْتَخْرِجاً ما شَاءَ مِنْ ذَلِكَ البَحْرِ
تَلُوذُ بِهِ الأَعْيَـانُ فِيْمَـا يَهمُهـمْ فَيُلْفَونَ عَطفَ البَرِ أَوْ فَائِضَ البِـرِ
كَرِيْمٌ تُجَارِي السُّحُبَ رَاحَتُـهُ وَلاَ يُرِيْدُ بِمَا يُجْزِي سِوى الفَوْزَ بالأَجْرِ
يُمَنٌ وَلا مَـنٌ يَـشُوبُ عَطَـاءَهُ وَيَمْنَحُ مِنْ لَفْظٍ سَبَى العَقْلَ بالسحرِ
عَرَائِسَ فِكْرٍ أَرخَصَ الدُرَّ لَفْظُها وأَنْشَتْ مَعَانِيْهَا لَنَا دَهْـشَةَ الفِكْـرِ

إنها الصفات التقليدية التي توارثها الشعراء المدّاحون في الثناء على ممدوحيهم ، أما الخصوصية فتكمن في اختيار ما يناسب الممدوح من صفات تتصل بعمله أو تخصصه ، فالعالم أو الأديب يناسبه المدح برجاحة العقل ، وسعة العلم ، وحسن المنطق ، وبراعة المعنى ، وجمال اللفظ ، إضافة إلى الصفات العامة كالكَرم ، والنخوة ، والتقوى ..

بقي أن نشير إلى استمرار تدفق شعر التكسب في هذا العصر بالرغم مما رأيناه سابقاً من شكوى الشعراء من كساد سوق هذا اللون من المديح ، وقد وصل بعض الشعراء إلى حدّ إراقة ماء الوجه وهو يطلب

([1]) هي عائشة بنت يوسف بن أحمد بن ناصر بنت الباعوني ، أديبة ، عالمة ، ناسكة ، انتقلت من دمشق إلى القاهرة طلباً للعلم ، وأجيزت للإفتاء والتدريس ، لها العديد من المؤلفات ، منها كتاب الفتح الحنفي ، وكتاب الملامح الشريفة والآثار المنيفة .. توفيت في حلب سنة 922 هجرية . أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، مطبعة القدس ، القاهرة 1351هـ ، 111/8 .

([2]) الكواكب السائرة 304/1 .

العطاء من ممدوحه ، من ذلك – مثلاً – قول جمال الدين محمد بن نباته([1]) في مدح صاحب حماة الملك المؤيد أبي الفداء([2]) :

يَا إِمَامَ الوَرَى ، مَضَى نِصْفُ عَامٍ مِنْ وصُولِي ولَمْ يَصِلْ لِـي رُبْـعُ
سَـنَةٌ إِن غفَلْـتَ عَنِّـي فِيْهـا كَسَرَتْنِي وكَيْفَ لا ، وهـيَ سَبعُ

وقوله([3]) :

شَكَرَتْ لُهَاكَ فَمَا أَشُكُّ بِـأَنَّنِي ثَقَّلْـتُ وَهْـيَ مُطِيقَـةٌ أَثْقَالَهَـا
أَغْنَيْتَنِي عن كُلِّ ذِي مَـالٍ فَلَـمْ أَفْتَحْ يَداً لِـسِوى نَـدَاكَ وَلا لَهَـا
وَكَفَيْتَنِي حتى قَفَـوْتُ مَعَاشِـراً كَثُرَ النَدَى فَاسْـتَكْثَرَتْ أَطْفَالَهَـا
أَيَامَ مَا لِي غَيْرَ قَـصْدِكَ حِيْلَـةٌ تُنْجِي وتُنْجِعُ فِي الوَرَى نُطَّالَهَا([4])
لاَ زِلْتَ مَقْصُودَ الحِمَى بِقَـصَائِدٍ أَصْبَحْتَ عِصْمَةَ أَمْرِهَا وَثِمَالَهَا([5])
لَولاكَ لَمْ يَخْطُرْ بِبَـالِي نَظْمُهَـا لا وَالَّـذِي يَلْقَـاكَ أَنْعَـمَ بَالَهَـا
سأَلَتْ رِوَايَاتِ النَّـدَى فَتَـأَخَّرَتْ عَنْهَا الوَرَى وَأَجَزْتَ أَنْتَ سُؤَالَهَا

([1]) هو محمد بن محمد بن محمد بن أبي الحسن بن صالح ابن الخطيب عبد الرحيم ابن نباته ، ولقبه شرف الدين ، ولد بمصر سنة 686 هجرية ، تعلم على أبيه وشيوخ مصر ورجال العلم فيها ، حاول الارتزاق بشعره فمدح أمراء الشام الأيوبيين وأثرياءها ، ثم عمل في ديوان التوقيع بدمشق ثم عاد لمصر بعد غيبة استمرت نصف قرن تقريباً ، واشتغل في الديوان مع المماليك .. توفي بالقاهرة سنة 768 هجرية . راجع ترجمته في : عمر موسى باشا : ابن نباته المصري أمير شعراء المشرق ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف، مصر 1992م ، ص 115 – 270 .

([2]) عمر موسى باشا : ابن نباته المصري أمير شعراء المشرق ، ص 36 .

([3]) السابق 155 . وانظر في مدح التكسب وطلب العطاء : – شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق محمد دوّر ، منشورات المجمع الثقافي ، أبو ظبي – الإمارات العربية المتحدة 2003م ، 381/16 – 382 . – شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، الطبعة الأولى ، دار الجيل ، بيروت 1992م ، 31/1 ، 38 ، 368 .

([4]) نطال : جمع ناطل ، ونطل الخمر عصرها .

([5]) ثمال القوم : غياثهم الذي يقوم بأمرهم .

نلاحظ أن ابن نباته لم يحفظ ماء وجهه ، وكان بوسعه استخدام لغة الشعر الموحية التي برع في استخدامها ، ولكن هذا حال معظم الشعراء في هذا اللون من المديح ، لم يحسنوا استخدام أدواتهم الفنية في التعبير عن حاجاتهم ، فحشدوا الصفات واحدة تلو أخرى دون ترابط .

أما السراج الوراق فقد كان أبرع من ابن نباتة حينما مزج طلب العطاء بلطيف المعاني وخفة الظل في قوله([1]) :

كَمْ قَطَعَ الجودُ مِن لِسَانٍ   قَلَّدَ مِنْ نَظْمِهِ النُّحورَا
فَهَا أنا شَاعِرٌ سِرَاجٌ   فَاقْطَعْ لِسَانِي أَزِدْكَ نُورَا

ومن طريف ما قاله شعراء التكسب في هذا العصر قول علاء الدين بن مليك الحموي([2]) :

مَدَحْتُكُم طَمَعاً فِيمَا أُؤَمِّلُه   فَلَمْ أَنَلْ غَيْرَ حَمْلِ الإِثْمِ والنَّصَبِ
إِنْ لَمْ تَكُنْ صِلَةٌ مِنْكُمْ لِذِي أَدَبٍ   فَأُجْرَةُ الخَطِّ أَوْ كَفَّارَةُ الكَذِبِ

وكذلك قوله([3]) :

لاَ تَعْجَبُوا مِنْ صَدِيقٍ كُنْتُ أَمْدَحُهُ   وَقَدْ هَجَانِي وَمَا فِيْ ذَاكَ مِنْ عَجَبِ
بَلْ اعْجَبُوا مِنْ ذَكَاءٍ فِيْهِ كَيْفَ دَرَى   أَنِّي كَذَبْتُ فَجَازَانِي على الكَذِبِ

ومن بديع معاني التعفف عن طلب العطاء من الممدوح قول صفي الدين الحِلِّي([1]):

([1]) ريحانة الألبا 430/1 . والشاعر هو سراج الدين عمر بن محمد بن حسن ولد بمصر سنة 615 هجرية ، وقد اشتهر بالطرف والفكاهة ، توفي سنة 695هجرية . راجع ترجمته في : النجوم الزاهرة 69/8 .

([2]) هو علي بن محمد بن علي بن عبد الله ، علاء الدين بن مليك الحموي ، ولد بحماة سنة 840هـ ، درس الأدب والنحو والعروض ، واشتغل بالعلم والأدب ، وبرع في الشعر .. توفي سنة 917 هجرية . ريحانة الألبا 188/1 – 190 .

([3]) السابق 190/1 .

وَلَقَدْ أَسِيْرُ عَلَى الضَّلالِ وَلَمْ أَقُلْ : أَيْنَ الطَّرِيْقُ ، وَإِنْ كَرِهْتُ ضَلالِي
وَأَعَافُ تَسْآلَ الدَّلِيْلِ تَرَفُّعاً عَن أَنْ يَفُوْهَ فَمِي بِلَفْظِ سُؤَالِ

* * *

أما في **العصر العثماني** فلا تكاد تختلف بواعث فن المديح عمّا كانت عليه في العصر المملوكي وما سبق من عصور العربية ، ففتوحات العثمانيين التي أوقفت الزحف الصليبي على المشرق الإسلامي ، ووصلت بالإسلام إلى عمق العالم الصليبي ، حازت إعجاب الشعراء وجعلتهم يلهجون بنشر بطولاتهم ، وتمجيد صفاتهم([2]) ، وكذلك حظيت أعمال الأمراء والوزراء وبعض رجال الدولة في الأمصار العربية إعجاب الشعراء ، فعددوا مناقبهم ، وامتدحوا صفاتهم ، وخلدوا أعمالهم . وقد ظفر رجال الدين والعلماء والأدباء بنصيب وافر من شعر المديح في هذا العصر ..

لقد تغنى الشعراء ببطولات السلاطين العثمانيين ، وأثنوا عليهم وقرضوا صفاتهم ، فمما قيل في مدح السلطان مراد بن سليم عندما فتح مدينة تبريز عام سنة 993 هجرية نشير إلى قصيدة ابن القاف الرومي([3]) التي منها قوله([1]) :

([1]) ديوان صفي الدين الحلّي 47 .

([2]) كذلك مجّد الشعراء اهتمام السلاطين بالمقدسات الإسلامية ، ودور العبادة والعلم ، ومن هؤلاء السلاطين "السلطان مراد" ، الذي أعاد بناء الكعبة بعد أن هدمها السيل سنة 1039 هجرية فاستحق مدح الشعراء . انظر : خلاصة الأثر 339/4 – 340 .

([3]) هو فيض الله بن أحمد ، المعروف بابن القاف ، الرومي ، قاضي العسكر ، وأحد فضلاء مشاهير الروم ، ولد سنة 950 هجرية ، وتولى قضاء حلب ، ثم قضاء الشام سنة 990 هجرية ، ثم عزل ورحل إلى بلاد

فَيَا مَلِيْكاً لَـهُ كُـلُّ الملـوكِ غَـدَتْ تَدِيْنُ طَوْعاً وَتَأتِي وَهْـيَ تَعْتَـذِرُ

سِرْ وَامْلِك الأَرْضَ والدُّنْيَا فَأَنْـتَ إذاً إِسْكَنْدَرُ العَصْرِ قَدْ وَافَى بِهِ الخَضِرُ

فَيَـا لَهَـا نِعْمَـةٌ آثَـارُ مَفْخَرِهَـا كَانَـتْ لِدَوْلَتِـهِ الغَـرَّاءِ تُـدَّخَرُ

ظِلُّ الإِلـهِ مُـرَادُ اللهِ قَـدْ شَـرُفَتْ بِهِ المَنَـابِرُ والتِّيْجَـانُ والـسُّرُرُ

أَجَلُّ مَنْ وَطِئَ الغَبْـرَاءَ مِـنْ مَلِـكٍ بِـأَمْرِهِ سَـائِرُ الأَمْـلاكِ تَـأْتَمِرُ

بِعَزْمِهِ ظَهَرَ الفَـتْحُ الَّـذِي عَجِـزَتْ عَنْهُ السَلاطِيْنُ ، قَدْ أَفْنَتْهُمُ العُصُرُ

وَلَوْ فَاخَرَتْهُ ملُـوكُ الأَرضِ قَاطِبَـةً مَا نَالَهُم مِنْ مَعَانِي فَخْرِهِ العُـشُرُ

هَلْ يَسْتَوِي الشمسُ والمِصْبَاحُ جُنْحَ دُجىً وَيَسْتَوِي الجَارِيَانِ البَحْرُ والنَّهْـرُ

بَدَا لَهُ فِي سَمَاءِ المَجْدِ نُـوْرُ هُـدىً مِنْ دُوْنِهِ النَّيِّرَانِ الشَمْسُ والقَمَـرُ

وَأَصْبَحَ المُلْكُ مَحْرُوْسَ الجَنَابِ وَقَـدْ وَافَى بِهِ المُسْعَدَانِ القَـدْرُ والقَـدَرُ

لقد تجلّت قناعة الشاعر بممدوحه فيما رأيناه من إصراره على تأكيد معاني القوة والمنعة ، إذ أصبحت الملوك تدين له طوعاً ، وتعتذر عمَّـا بَدَر منها ، وجعله اسكندر العصر الذي تحدث القرآن الكريم عن صفات عزته وآية بلوغه مغرب الشمس([2]) ، ثم تحدث عن رضا الله تعالى عنه إذ ادخر له نعمة هذا الفتح ، ثم طفق يمدحه بأبهى الصفات والمناقب .

الروم ، ثم تولى قضاء العسكر ، توفي سنة 1020 هجرية . انظر ترجمته في : خلاصة الأثر 3/288 – 292 . ونفحة الريحانة 3/93 – 99 .

([1]) نفحة الريحانة 3/97 – 98 . والقصيدة في خلاصة الأثر 3/290 – 291 .

([2]) قال تعالى : "حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوماً .." سورة الكهف، آية 86 .

ومما مدح به السلطان محمد خان الرابع بعد افتتاح قلعة "إيـــوار" سنة 1074 هجرية نذكر قصيدة من القصائد التي مدحه بها الـــشعراء ، قال عبد اللطيف البهائي البعلي([1]) :

مَلِكٌ عَلا فِي المَجْدِ أَعْلَـــى رُتْبَـــةٍ   أَنِفَتْ تَكُوْنُ لَـــهُ الثُّرَيَّـــا مَنْـــزِلاَ
تَعْنُوا مُلُوكُ الأَرْضِ قَاطِبَـــةً لَـــهُ   أَبَـــداً وَتَـــسْعَى خِيْفَـــةً وَتَـــذَلُّلاَ
تَخْشَى سُطَاةُ الأُسْدُ فِـــي آجَامِهَـــا   فَتَذُوْبُ مِنْـــهُ تَـــضَاؤُلاً وَتَغَلْغُـــلاَ
قَـــسَماً بِطَلْعَتِـــهِ أَلِيَّـــةَ صَـــادِقٍ   فِي حَلْفِهِ بَـــرِّ اليَمِـــيْنِ إِذَا ائْتَلَـــى
لَـــمْ تَـــسْمَحِ الأَيَـــامُ قَـــطُّ بِمِثْلِـــهِ   مَلِـــكٌ تَعَمَّـــمَ بِـــالتُّقَى وَتَـــسَرْبَلاَ
لَمْ يُحْصِ مَادِحُهُ جَمِيْـــلَ صِـــفَاتِهِ   كَلاَّ وَلَوْ أَفْنَى القَـــرِيْضَ تَسَلْـــسُلاَ
لَمْ يَأْلُ جُهْداً فِي الجِهَادِ وَلَمْ يَـــزَلْ   يَسْعَى بِإِرْسَالِ الجُيُـــوشِ مُكَمَّـــلاَ
فِيْ نُصْرَةِ الدِّيْنِ المُبِيْنِ مُجَاهِـــداً   بَرًّا وَبَحْـــراً لِلْعَـــسَاكِرِ مُرْسِـــلاَ
عَنْ حَوْمَةِ الإِسْـــلامِ ذَبَّ عِدَاتِـــهِ   وَأَبَـــادَ عُبَّـــادَ الـــصَلِيْبِ وَزَيَّـــلاَ
مَا زَالَ يَضْرَعُ فِي الدُّعَاءِ لِرَبِّـــهِ   سِرًّا وَجَهْـــراً مُجْمِـــلاً وَمُفَـــصِلاَ
مُتَوَجِّهاً بِخُلُوصِ قَلْـــبِ صَـــادِقٍ   فِيْمَـــا اِنْتَحَـــاهُ تَـــضَرُّعاً وَتَبَـــتُّلاَ
فَأَتَتْهُ بُشْرَى الفَـــتْحِ وَهْـــوَ مُلَفَّـــعٌ   ثَوْبَ السَعَادَةِ بِـــالجَلاَلِ مُـــسَرْبَلاَ
مُـــسْتَيْقِناً بِحِـــصُولِهِ وَمُـــؤَمِّلاً   مِـــنْ رَبِّـــهِ إِتْمَامَـــهُ مُتَـــوَكِّلاَ
لاَ زَالَ تَأْتِيْـــهِ البَـــشَائِرُ دَائِمـــاً   أَبَداً وَتَخْدِمُـــهُ المَفَـــاخِرُ وَالعُلَـــى
وَأَدَامَهُ عَوْنـــاً وَغَوْثـــاً لِلْـــوَرَى   وَحَبَاهُ رَبُّ العَرْشِ عُمْراً أَطْـــوَلاَ
بِـــسَمِيِّهِ خَيْـــرِ الأَنَـــامِ مُحَمَّـــدٍ   وَالآلِ وَالصَحْبِ الكِرَامِ ذَوِي الوَلاَ
مَا لاَحَ نَجْمٌ فِي الـــسَمَاءِ لِنَـــاظِرٍ   وَأَضَاءَ بَدْرٌ فِي الـــدُّجَى وَتَهَلَّـــلاَ

نفحة الريحانة 2/397 – 398 . وانظر أيضاً : خلاصة الأثر 1/354 .

أدار الشاعر معاني مدحه حول منزلة السلطان محمد خان الرابع ، وقوة بأسه ، وخشية الأعداء من بطشه ، وتفرده عبر الأزمان بالتقوى والغيرة على الإسلام ، والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى ، وأسهب في تقريض صفات تدينه وتقرّبه إلى الله عزّ وجلّ ، ثم ختم مديحه بالدعاء له أن يبقى عوناً للناس ، وأن يطيل ربُّ العرش عمره . وكما هو واضح فقد سار الشاعر في ركب شعراء المدح في العصور السابقة ، وترسّم خطاهم في ترديد معاني الشجاعة ، وهيبة الجانب ، والتقوى ، والجهاد في سبيل الله تعالى ، وقد أعانته قوة قريحته ، وحُسن ظنه بالسلطان على الوصول إلى غايته ببراعة دون أن يقع في حبائل التكلف أو التقليد .

ومما قاله الشعراء في تخليد بطولات الجيش العثماني ، ومدح الوزراء والقادة نذكر قول الشاعر قطب الدين المكّي([1]) في مدح الوزير سنان باشا ، لأنه أعاد الأمن والاستقرار لليمن([2]) :

لَكَ الحَمْدُ يا مَوْلَايَ في السِّرِّ والجَهْرِ ... على عِزَّةِ الإسلامِ والفَتْحِ والنَّصْرِ
كَذَا فَلْيَكُنْ فَتْحُ البلادِ إذَا سَعَتْ ... لَهُ الهِمَمُ العَلْيَا إلى شَرَفِ الذِّكْرِ

([1]) "هو قطب الدين ، محمد بن علاء الدين أحمد بن محمد ، النهرواني ، الهندي ، ولد سنة سبع عشرة وتسعمائة .. وكان بارعاً متفنناً ، في الفقه ، والتفسير ، وعلوم العربية ، ونظم الشعر ، وشعره في غاية الرقة . كتب "تاريخ لمكة المشرقة" ، وألف "طبقات الحنفية" ، وقد احترق في جملة كتبه .. توفي سنة تسعين وتسعمائة" . انظر ترجمته وبعض شعره في :

شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي : ريحانة الألِبّا وزهرة الحياة الدنيا ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة 1967م ، 407/1 .

([2]) هو الوزير الأعظم سنان باشا ، وليّ الحكومة في مصر أيام السلطان سليم بن سليمان ، انتدبه السلطان لإعادة الاستقرار إلى اليمن ، كذلك قاد جند المسلمين في تحرير تونس من الفرنجة الصليبيين ، كذلك عينه السلطان لحرب النمسا ، توفي سنة أربع بعد الألف هجرية . السابق 411/1 .

جنودٌ رمَتْ مِنْ كَوْكَبانِ([1]) خيامَهــا   وآخِرُهَا بالنِّيلِ مِنْ شَاطِئَيْ مِــصْرِ
نَجْرٌ مِنَ الأَبْطَــالِ كُــلَّ غَــضَنْفَرٍ   بصارمِهِ يَسْطُو على مَفْرِقِ الــدهرِ
عَــسَاكِرُ سُــلْطَانِ الزَمــانِ مَلِيكِنَــا   خَلِيْفَةِ هذا العصْرِ في البَرِّ والبَحْرِ([2])
حَمَى حَوْزَةَ الدِّينِ الحَنِيفِــيِّ بِالقَنــا   وَبِيْضِ المَواضِي والمُثَقَّفَةِ الــسُّمْرِ

وبعد أن وصفه وجيشه بالشجاعة ، والغيرة على الإسلام وبــلاد المسلمين ، امتدح رجاحة عقله ، وبُعدَ نظره ، وجعله في حُسن تــدبيره كيوسف الصديق عليه السلام ، فقال([3]) :

وَزِيْرٌ عَظِيْمُ الــشَّأنِ ثَاقِــبُ رَأ يُــهُ   يُجَهِّزُ في آنٍ جيوشاً مــن الفِكْــرِ
سِنَانٌ عَزِيزُ القَدْرِ يُوسُــفُ عَــصْرِهِ   ألَمْ تَرَهُ في مِصْرَ أَحْكَامُهُ تَجْــرِي
وَهَلْ تَطْمَعُ الأَعْدَاءُ في مُلْــكِ تُبَّــعٍ   وتَأْخُذُه مِــنْ آلِ عُثْمَــانَ بِــالمَكْرِ

أما الشاعر القائد شرف الدين أحمد بن يحيى([4]) فقد أشاد بجيــشه وقادة جنده ، ووصف قوة عريكتهم وكثرة عددهم ، ومدح شجاعتهم التي مكنته من فتح مدينة صعدة اليمنية ، وقد سلّط الأضواء علــى القوميــات التي ينتمي إليها أفراد جيشه الإسلامي ، من ذلك قوله([5]) :

وجَحَافِلٌ مثلَ الجبــالِ تلاطَمَــتْ   أَمْوَاجُهُنَّ بِكُــلِّ أَصْــيَدِ أَغْلَــبِ

([1]) كوكبان : جبل قرب صنعاء .

([2]) كان يطلق على السلطان العثماني لقب "سلطان البرين ، والبحرين ، وخادم الحرمين الشريفين" . راجــع : تاريخ الأدب العربي – العصر العثماني 13 .

([3]) ريحانة الألبا 412/1 .

([4]) هو الإمام المتوكل على الله شرف الدين بن شمس الدين بن الإمام المهدي أحمد بن يحيى ، ولد ســنة 877 هجرية بحصن حضور ، وارتحل إلى صنعاء عام 883 وهناك تلقى علومه الأولى ، وقرأ أمهات كتــب العربية والدراسات الإسلامية على علماء اليمن وشيوخها ، له مصنفات منها : كتاب "الأثمار" ، توفي سنة 965 هجرية ، ودفن بحصن الظفير . راجع ترجمته في : الشوكاني : البدر الطالع 194/1 – 196 .

([5]) البدر الطالع 195/1 .

مِنْ كُلِّ أَبْلَجَ مِن ذُؤَابَـةِ هَاشِـمٍ   وَبِكُلِّ أَرْوَعَ مِن سُـلاَلَةِ يَعْـرُبِ
وَأَعَـاجِمُ تُـرْكٌ ورومٌ قَـادَةٌ   وأَحَابِشٌ مِثْلَ الأُسُـودِ الوثَّـبِ

ولمّا فتح العثمانيون قلعة "قندية" عاصمة جزيرة كريت عام 1080 هجرية ، ابتهج المسلمون بهذا النصر ، لأن هذه القلعة كانت شديدة التحصين ، ولأن جزيرة كريت الجزيرة كانت مركزاً مُتقدماً لانطلاق الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي ، ومنها كان ينطلق القراصنة للإغارة على سفن المسلمين وشواطئهم ، وقد عبَّر الشعراء عن غبطتهم بهذا النصر ، ومدحوا العثمانيين ، وأشادوا بمناقب القائد العثماني الفاتح "الصدر الأعظم أحمد كوبرلي باشا"([1]) ، من ذلك قول ابن النقيب الحسيني([2]) :

مَا آلُ بَرْمَكَ فـي ذُرا بَغْـدَادِ   يَـوْمَ الفَخَـارِ ولاَ بَنُـو عَبَّـادِ
يَوْمَاً بِأَوْقَعَ في النفُوسِ مَفَاخِراً   مِما لَكُـمْ مِـنْ سُـؤْدُدٍ وسَـدادِ
حَلَّيْـتُمُ جِيْـدَ الزمَـانِ بِدَوْلَـةٍ   حَلَّتْ مَحَلَّ الروحِ في الأَجْسادِ
جَلَّ المُهَيْمِنُ كَمْ أَتَاحَ لِذا الـوَرَى   مِنْهَا جَمِيْـلَ عَـوَارِفٍ وأَيَـادِ

([1]) هو أحمد باشا بن محمد باشا الوزير الأعظم المعروف بالفاضل أحمد باشا الكوبري الأصل ، القسطنطيني المولد ، وقد عدّه "المحبي" أهم وزراء الدولة العثمانية ، وقال عنه : "لم يكن في الوزراء من يحفظ الدين وقانون الشريعة مثله" وذكر من فتوحه وانتصاراته أنه هزم ثوار المجر ، وفتح قلعة "قندية" التي بقيت منذ دون فتح منذ أن فتح السلطان إبراهيم بن أحمد (ت 1058 هـ) الجزيرة كلها باستثنائها ، لأنها كانت شديدة التحصين . خلاصة الأثر 352/1 – 354 .

([2]) هو عبد الرحمن بن محمد بن كمال الدين الحسيني ، الدمشقي ، المعروف بابن النقيب ، لأن والده كان نقيب الأشراف في بلاد الشام ، ولد سنة 1048هـ ، تتلمذ على والده ، وغيره من علماء العصر ، ثم تعانى الإنشاء ونظم الشعر ، وأحسن فيهما كل الإحسان حتى بلغت شهرته الآفاق .. مات بوباء الطاعون الذي انتشر في دمشق سنة 1081 هجرية . خلاصة الأثر 390/2 – 404 . وانظر القصيدة في ديوان ابن النقيب ، تحقيق عبد الله الجبوري ، طبعة مجمع اللغة العربية ، دمشق 1963م ، ص 93 .

إِيهٍ بِعَيْشِكَ يا زَمَانُ فَلا تَنِي أَبداً بِنَشْرِ مَحَاسِنَ الأَمْجَادِ
فَتَحوا بِقنديةٍ مَعَاقِلَ أُرْتِجَتْ قِدماً على الأُمَرَاءِ والأَجْنَادِ
وافى لَها الصَدْرُ الرَفِيْعُ جَنَابُهُ عِلْمُ الغُزَاةِ ومُكْمِدُ الحُسَّادِ
ولَهُ بِدِيْنِ الحَقِّ صَوْلَةُ نَاصِحٍ ذَلِكَ الغُزَاةُ بِهَا ذُرا الأَطْوَادِ
تَرْوِي لَهُ الأَيَامُ طِيْبَ مَفَاخِرٍ ومَآثِرٍ عَزَّتْ على الأَنْدَادِ
أَنْتُمْ بَنِي العَلْيَاءِ قُطْبُ مَدَارِهَا يَوْمَ الفَخَارِ ومَوْئِلَ القُصَّادِ
أَشْفَعْتُمُ شَرَفَ الجِهَادِ بِمَقْصِدٍ أَسْنَى ومَسْعَاةٍ لِخَيْرِ مَفَادِ

إن ابتهاج الشاعر بفتح "قندية" ، وإعجابه بالوزير أحمد كوبرلي باشا جعله يقرن مفاخر آل كوبرلي العثمانيين الأتراك بمفاخر البرامكة في بغداد ، ومفاخر بني عباد في اشبيلية ، ليس ذلك فحسب بل نراه ينحاز للعثمانيين ودولتهم ، ثم يمجد صفات الوزير وآله ، ويعدد مناقبهم ومنها نصرة الدين وإعلاء راية الجهاد .

ولم يكن ابن النقيب بدعاً في تمجيد هذا الوزير الفارس ، فكثير من شعراء العصر العثماني تغنوا بفتح قلعة "قندية" ، وامتدحوا إقدام هذا الوزير وشجاعته ، كما أشادوا بعلمه وتقواه ونصرته للإسلام([1]) .

أما رجال الدين والعلماء والأدباء فقد فازوا بنصيب الأسد من شعر المديح في العصر العثماني ، وقد تنوعت الصفات التي وصفهم الشعراء بها ، فإلى جانب الصفات الخاصة التي تتصل بعملهم وعلمهم

([1]) انظر مثلاً قصيدة مصطفى بن عثمان البابي الحلبي قاضي المدينة المنورة ، التي يقول في مطلعها :
لكَ اللهُ مِنْ نَدْبٍ إذا هَمَّ صَمَّما وطَلاَّعَ أَنْجَادٍ إذا أَمَّ تَمَمَا
المحبي : خلاصة الأثر 355/1 .

مدحوهم – غالباً – بالصفات التقليدية كالشجاعة ، والسخاء ، والتقوى . وحُسن الرأي ، وعراقة الأصل .. ، من ذلك ما ينطوي عليه قول ابن القطان([1]) في مدح القاضي علاء الدين علي بن عبد الله العشاري الحلبي المعروف بابن الحنبلي([2]) :

ضَاعَتْ بِمَنْصِبِهِ الشَّهبَاءُ وهو بها ... لِنَصْرَةِ الحَقِ لا وَانٍ ولاَ قَلِق

يؤمُّهُ العَاجِزُ المَلْهُوفُ ينجِدُهُ ... نعمْ ويخرجُهُ من أضيقِ الطُّرُق

لـه السِّيادَةُ في الدُّنيا مُؤبَدَةٌ ... على الدَّوامِ مَدَى الأيامِ في نَسَق

قَاضِي القُضَاةِ رَقَى في المَجْدِ منزلَةً ... تَعْلُو على الدَّهْرِ والأَفْلاكِ والأُفُق

يَا مَنْ بِهِ حَلَبٌ أَحْوَالُها صَلُحَتْ ... وبَاتَ سَاكنُها بالأَمنِ مِن فَرَق

للهِ دَرُّكَ يا مَولايَ مِنْ رَجُلٍ ... لِسَانُهُ نَاطِقٌ بِالحَقِّ مُنْطَلِق

لقد خص ابن النقيب ممدوحه بالصفات التي يتصف بها القاضي النزيه ، فمدحه بالعدل ، ونصرة الحق ، والانتصار للضعيف .. ، ثم مدحه بالصفات العامة التي يشترك فيها العلماء .

ومن القصائد الطويلة الجامعة للصفات والمعاني التي مُدِحَ بها القضاة والعلماء قصيدة الصَّنعاني([3]) في مدح القاضي محمد بن علي الشوكاني([1]) ، التي منها قوله([2]) :

([1]) هو الشَّاعر علي بن عبد الله المعروف بابن القطان ، المتوفى سنة سنة 932هـ .

([2]) أحمد فوزي الهيب : الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1986م ، ص 240 .

([3]) يقول الشوكاني في تعريفه : "السيد أحمد بن علي بن مُحسن بن الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم الصَّنعاني ، ولد تقريباً سنة 1150 . واشتغل بطلب العلم بعد أن قارب الخمسين من عمره . ثم قرأ علـيَّ في النحو ، والصرف ، والمنطق ، والمعاني ، والبيان ، والحديث ، والتفسير وأدرك إدراكاً كاملاً لاسيما في العلوم الآلية . وفهمه جيد وفكره صحيح وتصوره حسن وإدراكه كامل ..". البدر الطالع 58/1 .

قاضٍ ببَهْجَتِـهِ الأيَّـامَ مُـشْرِقَةً ... كَالشَّمسِ لَكِنَّ نُورَ الشَّمسِ لَمْ يَـدُمِ
فَالحَمْـدُ للهِ دُنْيَانَـا بِبَهْجَتِـهِ ... إِشْرَاقُهَا غَيْرَ مَسْلُوخٍ عن الظُّلَمِ
قاضٍ إذا جِئْتَهُ يَوْمـاً لَقِيـتَ بِـهِ ... كُلَّ الأَفَاضِلِ مِنْ عَرَبٍ ومِنْ عَجَمِ
يَخْشَى الخُصُومُ ارْتِعَاداً مِنْ مَهَابَتِهِ ... حَتَّى كَأَنَّ بِهِمْ ضَرْبٌ مِـنَ اللمَـمِ
لأَنَّ ما أَضْـمَرُوهُ فـي فَرَاسَـتِهِ ... مِنْ حُسْنِ إيْمَانِهِ نَارٌ علـى عَلَـمِ

إلى غير ذلك من قصائد المديح الطوال التي خلّدت ذكر العلماء والقضاة المنتشرين في أرجاء الدولة العثمانية المترامية الأطراف([3]) .

ويدخل مدح الشعراء للكُتّاب ، وأصحاب الكتب والمؤلفات ، في باب المودة الصادقة – غالباً – ، والإعجاب بمناقب الممدوح ، وتقريظ صفاته التي تتصل بالفصاحة ، وجودة الألفاظ ، وجمال المعاني ، وسعة الثقافة ، إضافة إلى الصفات العامة المشتركة ، وطبعاً تتفاوت الصفات حسب مكانة الممدوح ، ورتبته إذا كان كاتباً في ديوان الإنشاء ، ومن المدائح السيارة في هذا الباب قصيدة فتح الله بن النحاس([4]) في مدح رئيس ديوان الكتاب بدمشق ، مراد بن هداية الله([5]) ، التي يقول فيها([6]) :

بِصَبَاحِ وَجْهِكَ تُـشْرِقُ الأَنْـوَارُ ... ولِبَابِ مَجْدِكَ تَهْـرَعُ الأَمْجَـادُ

([1]) وهو مؤلف كتاب "البدر الطالع بمحاسن مَن بعد القرن السابع" ، المتوفى سنة 1250 هجرية .

([2]) البدر الطالع 59/1 .

([3]) انظر مثلاً : ريحانة الألبا 50/1 ، 91-93 ، 129 . ونفحة الريحانة 19/1 ، 93 ، 139 .

([4]) هو فتح الله بن عبد الله بن النحاس الحلبي ، أكثر من التنقل ، دخل دمشق مرات ، وأقام بمصر مدة .. توفي بالمدينة المنورة سنة 1052هـ . انظر ترجمته في نفحة الريحانة 507/2 – 533 ، وخلاصة الأثر 354/4 – 355 .

([5]) هو مراد بن هداية الله العجمي الأصل الدمشقي المولد .. توفي وهو عائد من الحج سنة 1043 هجرية . انظر : خلاصة الأثر 354/1 .

([6]) خلاصة الأثر 354/1 – 355 .

وإذا جرَى ذِكْرُ الأَنَامِ بِمَجْلِسٍ ... بَدَءُوا بِذِكْرِكَ وانْتَهَى الأَعْدَادُ
سَجَدَتْ لَكَ الأَفْلاكُ حِيْنَ رَفَعْتَهَا ... والغَابُ تَرْفَعُ ذِكْرَهُ الآسَادُ
حَيَّرْتَ حُذَّاقَ الحِسَابِ بِفِكْرَةٍ ... تَرَكَتْهُمُ وأُلُوفُهُم آحَادُ
قُسُّ الفَصَاحَةِ(1) لَوْ نَطَقْتَ سَحَرْتَهُ ... ولَوَدَّ لَو أَنَّ الحَدِيْثَ يُعَادُ
لَمْ يَسْبِقُوكَ وإِنْ سُبِقْتَ بِوَالِدٍ ... فَكِلاهما في المَأْثِرَاتِ جَوَادُ
مَا المَجْدُ إلاّ أَنْ يَكُونَ وِرَاثَةً ... وتَزِيْدُ عَنْ آبَائِهَا الأَوْلادُ
مِنْكُمْ بَدَا نَجْمُ الهِدَايَةِ لِلْعُلا ... وعَشَا لِنَارِ قِرَاكُم القُصَّادُ
كُلٌّ يُؤَمِّلُ أَنْ يُرَادَ سِوَى الذِي ... خَلَعَ القَبُولُ عَلَيْهِ وهُوَ يُرَادُ
إِنَّ السِيَادَةَ فِيْ ذُرَاكَ تَعَوَّدَتْ ... بِكَ أَنْ يَمُدَّ يَداً لَهَا الحُسَّادُ
عَزَمَاتُ مِثْلِكَ لا تُعَابُ بِحِدَّةٍ ... بِيْضُ الصَوَارِمِ كُلُّهُنَّ حِدَادُ
هَذَا الغَمَامُ على الخَلائِقِ رَحْمَةً ... وصِفَاتُهُ الإِبْرَاقُ والإِرْعَادُ
يَا دَوْحَةً ظِلُّ السَعَادَةِ ظِلُّهَا ... لا زَالَ حَولَكَ ظِلُّكَ المَيَّادُ
ورَعَى حِمَاكَ مِنَ العِنَايَةِ حَارِسٌ ... وسَقَى ثَرَاكَ مِنَ الحَيَا عِهَادُ

لقد زاوج الشاعر بين العام المشترك من الصفات المحمودة ، والخاص الذي يميز الكُتَّاب والأدباء ، ثم أضفى على العام منها خصوصية تتصل بتفرد هذا الممدوح ، فمن بهاء طلعته يستمد الصباح أنواره ، وطيب ذكره يُغني عن ذكر سواه من الأماجد ، وهو القمر الذي تستمد النجوم منه ضياءها .. ثم يجعل الشاعر هذه المناقب مدخلاً للخاص الذي يميز ممدوحه عن أهل البراعة والبيان ، فيمتدح براعته في الحساب مبيناً أنها لا تدانيها براعة ، وفصاحته التي يغبطه عليها فصحاء العرب أمثال "قُس بن ساعدة" ، ثم يجتهد في تأصيل براعته وفصاحته ، ويمدح

---

(1) أظن أن الشاعر يُشير إلى "قُس بن ساعدة" ، الخطيب الجاهلي المشهور .

الوالد المورِّث ، ويؤثر ولده عليه بما يتفوق الأبناء على الآباء ، ويجعله القدوة الذي يهتدي به طلاب المجد والعلا . ويعود الشاعر ثانية للعام المشترك من الصفات ، ويمزجها مع ما يخص به ممدوحه ، فيجعل السيادة تخشى عليه عيون الحاسدين ، ثم عاد للحديث عن علو همته ، وسخاء يده ، وختم بالدعاء له بدوام السعادة ، وطول العمر ، وأن يكلأه الله عزّ وجلّ برعايته .

لقد استقصى الشاعر كل ما يمكن أن يمدح به إنسان ماجد ، وكاتب متميز ، وعبر عن إعجابه بممدوحه ، وصدق أحاسيسه تجاهه ، وشف الدعاء له في ختام القصيدة عن روح المودة ..

وقد أفاض الشعراء في الثناء على الأدباء المجتهدين ، وأشادوا بكتبهم ومؤلفاتهم ، ومن شواهد هذا المديح نذكر قصيدة للشاعر ابن المنقار الدمشقي([1]) في مديح مؤلف كتاب "ريحانة الألِبَّا وزهرة الحياة الدنيا ، شهاب الدين الخفاجي([2]) ، يقول في مطلعها([3]) :

بأُفْقِ دِمَشْقَ قَدْ طَلَعَ الشِّهابُ   أَضَاءَتْ مِنه هَاتِيْكَ الرِّحَابُ
هُمَامٌ جَدَّ في طَلَبِ المَعَالي   فأَحْرَزَ شَأْوَهَا مِنه الطِّلابُ
ومَوْلى شَأنُه تَحْرِيْرُ عِلْمٍ   وتَقْرِيْرُ المَبَاحِثِ والخِطَابُ

([1]) هو عبد اللطيف بن يحي بن شمس الدين محمد بن القاسم ، ابن المنقار الدمشقي ، المتوفى سنة 1057هـ، وهو سليل عائلة اشتهرت بالشعر والعلم ، وأشهرهم جده شمس الدين محمد . راجع في ترجمته : ريحانة الألبا 131/1 . وخلاصة الأثر 20/3 .

([2]) هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي (977 – 1069هـ) . وقد تحدث محقق الكتاب عبد الفتاح محمد الحلو عن حياته وكتبه المنشورة والمخطوطة . راجع ريحانة الألبا 37/1 .

([3]) ريحانة الألبا 131/1 – 132 .

حوَاشِــيْهِ مُنَقَّحَــةُ المَعَــاني ومِنْ فَنِّ البَيَانِ بِهَــا اللُّبَــابُ
فَبَــدْرُ عُــلاهُ مُكْتَمِــلٌ مُنِيْــرٌ يَفِيضُ بِــدُرِّها مِنْــهُ العُبَــابُ
فَفِي التَّفْــسِيْرِ مُجْتَهِــدٌ وفِيْمَــا نَحَــاهُ رَأْيُــهُ أَبَــداً صَــوَابُ
فَــلا يُلْقَــى لَــهُ نَظِيْــرٌ وليسَ لَهُ سِوَى التَّحرِيْــرِ دَابُ

تلتقي معاني قصيدة ابن المنقار في مدح الخفــاجي مــع معــاني قصيدة ابن النحاس السابقة ، فكل من الممدوحين أديب بارع ، وما ذكراه يمثل معظم الصفات التي يُمكن أن يُمدح بها الأدباء ، وإن كان ابن المنقار قدّم الصفات الخاصة على العامة المشتركة([1]) ، وميّزَ ممدوحه بما يختص به من العلوم والمعارف وتحرير الكتب .

ومن شعر التكسب في هذا العصر نذكر إلماح ابن النحاس الحلبي في نهاية إحدى قصائده التي قالها في مدح الأمير منجك([2]) :

حَرَسَــتْهُ شَــوكَةُ حُــسْنِهِ عَــنْ أَنْ تُمَــدَّ لَــهُ الأَيَــادِي
والعَنْــدَلِيْبُ أَمَامَــهُ بِفَــصِيْحِ نَغمتِــهِ يُنَــادِي

([1]) تشتمل باقي أبيات القصيدة على الصفات العامة المشتركة التي يُمكن أن يُمدح بها الأدباء وغيرهم من ذوي الجاه أو النفوذ .

([2]) هو الشاعر الأمير منجك بن الأمير محمد بن منجك ، الشركسي الدمشقي ، ولــد بدمــشق ســنة 1007 ، وتوفي فيها سنة 1080 هجرية . انظر ترجمته في : خلاصة الأثر 409/4 . وريحانــة الألبــا 232/1 . ونفحة الريحانة 136/1 .

الفخر والحماسة :

استمر تدفق شعر الفخر والحماسة عبر العصور بقوة وغزارة ، وذلك لارتباط بواعثه بالحروب والمعارك ، وبالعصبية القبلية والمنافرات الشخصية . وتوقف اهتمام شعراء العصور السابقة بهذا اللون الشعري على مدى قربهم من القادة والحكام ، ومن ساحات المعارك أحياناً ، ومنذ أضحت الهيمنة على بلاد المشرق الإسلامي في بؤرة اهتمام أوربا المسيحية ، وأضحى الانتصار للديانة المسيحية وتأديب المسلمين وتخليص قبر المسيح عليه السلام من أيديهم شعاراً([1]) ، وبدأت الحملات الصليبية تستولي على هذه البلاد وتعيث فيها فساداً ، بدأ التحول في باعث شعر الفخر والحماسة ، فأصبح جماعياً لا يلتفت للمفاخر الشخصية ، وقومياً لا مكان للعصبية القبلية فيه ، ودينياً محضاً يلهب مشاعر المجاهدين ويحضهم على الانتصار للإسلام والمسلمين ، ويصف المعارك ويفاخر بالانتصارات .

وقد كان على المماليك منذ بداية عصرهم أن يتصدوا للزحف الهمجي المغولي الذي خرّب بغداد ، وفتك بالبلاد الشامية ، وبدأ الاستعداد للزحف على دولتهم ، إضافة إلى مواجهة الحملات الصليبية المتتابعة ووقف مدها ، وتحرير ما في أيدي الصليبيين من مدن الشام ، وتدمير قلاعهم وحصونهم .

([1]) ادّعى الصليبيون أن المسلمين يدنسون قبر المسيح .. للاستزادة راجع أسباب الحروب الصليبية في : كتابنا قصة الحروب الصليبية ، الطبعة الأولى ، غزة 1992م .

كانت معركة عين جالوت – سنة 658 هجرية – أول المعارك الحاسمة في العصر المملوكي ، وقد وضعت حدًّا للصلف المغولي ، وسطرت الفصل الختامي لوجود المغول في المشرق الإسلامي ، كما كانت بَداية تألق أسماء السلاطين والقادة المماليك في سماء المجد والبطولة ، وشرع الشعراء يتغنون بانتصاراتهم ، وانتصار الدين الإسلامي ، من ذلك القصيدة التي مطلعها([1]) :

هَلَكَ الكفرُ في الشام جميعاً   واستجدَّ الإسلامُ بعد دُحُوضِهْ

ومما قيل في معركة عين جالوت نذكر قول شهاب الدين محمود الحلبي مفتخراً بانتصار السلطان سيف الدين قطز على التتار([2]) :

كَذَا فَلْتَكُنْ فِي اللهِ تَمْضِي العَزَائمُ   وإلاَّ فَلا تَجْفُو الجفُون الصَّوَارِمُ
عَزَائِمُ حَاذَتْها الرِّيَاحُ فأصْبَحَتْ   مُخلَّفَةً تَبْكِي عَلَيْهَا الغمَائمُ
سَرَتْ مِن حِمَى مِصْرٍ إلى الرومِ فَاحتَوَتْ   عَلَيْهِ وسُورَاهُ الظُّبَا واللهَاذِمُ
بجَيْشٍ تَظَلُّ الأَرْضُ مِنْهُ كَأَنَّهَا   عَلَى سِعَةِ الأَرْجَاءِ فِيْ الضِّيْقِ خَاتَمُ
كَتَائِبُ كَالبَحْرِ الخِضَمِّ جِيَادُهَا   إذَا مَا تَهَادَتْ مَوْجُهُ المُتَلاطِمُ
تُحِيْطُ بِمَنْصُورِ اللِوَاءِ مُظَفَّرٍ   لَهُ النَّصْرُ والتأييدُ عَبْدٌ وخَادِمُ
مَلِيْكٌ يَلُوذُ الدِّيْنُ مِنْ عَزَمَاتِهِ   بِرُكْنٍ لَهُ الفَتْحُ المُبِيْنُ دَعَائمُ
مَلِيْكٌ لأَبْكَارِ الأَقَالِيمِ نَحْوَهُ   حَنِيْنٌ كَذَا تَهْوَى الكِرَامَ الكَرَائمُ
فَكَمْ وَطِئَتْ طَوْعاً وكُرْهاً جِيَادُهُ   مَعَاقِلَ قُرْطَاهَا السُّهَا والنعَائمُ
مَلِيْكٌ بِهِ لِلدِّيْنِ فِيْ كُلِّ سَاعَةٍ   بَشَائِرُ لِلكُفَّارِ مِنْهَا مَآتِمُ

([1]) أشرنا لهذه القصيدة في ثنايا حديثنا عن الحياة السياسية ، وانظر أيضاً : النجوم الزاهرة 76/7 . وانظر : تاريخ ابن الوردي 201/2

([2]) النجوم الزاهرة 152/7 – 153 .

وَسَالَتْ عَلَيْهِمْ أَرْضُــهُمْ بِمَوَاكِــبِ لَهَا النَّصْرُ طَوْعٌ والزَمَــانُ مُــسَالِمُ
أَدَارَتْ بِهِمْ سُوْراً مَنِيْعــاً مُــشَرَّفاً بِسُمْرِ العَوَالِي مَا لَهُ الــدهْرُ هَــادِمُ
مِنَ التُرْكِ أَمَّا فِي المَغَــانِي فَــإِنَّهُمْ شُمُوسٌ وأَمَّا فِي الوَغَى فَــضَرَاغِمُ
غَدَا ظَاهِراً بِالظَاهِرِ النصْرُ فِــيْهِمُ تَبِيْدُ اللَيَــالِي والعِــدَا وهــوَ دَائِــمُ
فَأَهوَوْا إِلَى لَثْمِ الأَسِنَّةِ فِي الوَغَى كَــأَنَّهُمُ العُــشَّاقُ وهِــيَ المَبَاسِــمُ
وَصَافَحَتْ البِيْضَ الصِفَّاحَ رِقَــابُهُمْ وعَانَقَتْ الــسُمْرَ القُــدوْدُ النَــواعِمُ
فَكَمْ حَاكِمٍ مِنْهم عَلَــى أَلْــفِ دَارِعٍ غَدَا حَاسِراً والــرُمْحُ فِيْــهِ حَــاكِمُ
وكَمْ مَلِكٍ مِنهم رَأَى وهــو مُوْثَــقٌ خَزَائِنَ مَا يَحْوِيْــهِ وَهــيَ غَنَــائِمُ
فَلا زِلْتَ مَنْصُورَ اللِّــوَاءِ مُؤَيَّــداً عَلَى الكُفْرِ مَا نَاحَتْ وأَبْكَتْ حَمَائِمُ

يفخر الأديب شهاب الدين محمود في الأبيات السابقة بقوة جـيش المسلمين ، وقوة عريكة السلطان القائد ، فيصف المعركة ويطلعنا علـى نتائجها مبيناً مصير المعتدين ، المغول والروم الصليبيين الذين انـضموا إليهم ، فهم بين قتيل وأسير ..

وقد تتبع السلطان الظاهر بيبرس فلـول المغـول والـصليبيين ، "وكان جباراً في الأسفار والحصارات والحروب ، وخافه الأعـادي مـن التتار والفرنج وغيرهم ، لأنه روَّعهم بالغـارات والكبـسات ، وخـاض الفرات بنفسه فألقت العساكر بأنفسها خلفه ، ووقع على التتار فقتل مـنهم مقتلة عظيمة وأسر مائتي نفس ، وفي ذلك قال محيي الـدين ابـن عبـد الظاهر :

تَجَمَّعَ جَيْشُ الشِرْكِ مِنْ كُــلِّ فِرْقَــةٍ وظَنوا بِأَنَّا لا نُطِيْــقُ لَهُــم غُلْبَــا
وجَاءوا إِلَى شَاطِئِ الفُرَاتِ ومَا دَروا بِأَنَّ جِيَادَ الخَيْــلِ تَقْطَعَهَــا وَثْبَــا

وجَاءَتْ جنودُ اللهِ فِي العِـدَدِ التـي   تَمِيْسُ لَهَا الأَبْطَالُ يَوْمَ الوَغَى عجْبا
فَعُمْنَا بِسَدٍّ مِنْ حَدِيْدٍ سِبَاحَةً   إِلَيْهِم ، فَمَا اِسْطَاعَ العَدُوُّ لَهُ نَقْبا"([1])

اتسمت معارك المماليك مع المغول والصليبيين بالميسم الديني ، فبينما كانت جيوش المغول جيوشاً همجية تستهدف البلاد والعباد ، وتدمر الحضارة العربية الإسلامية عامة ، كان الفرنجة الأوربيون يستهدفون الإسلام والمسلمين ، وقد وحدوا جيوشهم تحت راية الصليب ليعلنوها حرباً دينية خالصة ، لذلك اِلتف المسلمون – مماليك وعرب – حول راية الإسلام للدفاع عن دينهم ووطنهم ، لذلك رأينا الشعراء يفتخرون بالمعارك الفاصلة ، ويصورون قوة الجيش الإسلامي ، ويمجدون مشاهد البطولة .. ، ومما قيل – أيضاً – في انتصارات الظاهر بيبرس على المغول والصليبيين نورد قصيدة بدر الدين يوسف بن المهمندار([2]) التي يقول فيها([3]) :

لَوْ عَايَنَتْ عَيْنَاكَ يَوْمَ نِزَالنا   والخَيْلُ تَطْفَحُ في العُجَاجِ الأَكْدَرِ

([1]) محمد بن شاكر الكتبي : فوات الوفيات 238/1 .

والشاعر هو أبو محمد ، محيي الدين ، عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر ، لقّبه ابن نباتة بلقب "الكاتب المصري ، وهو من الكتاب المعدودين في العصر المملوكي ، تقلب في العديد من المناصب الديوانية ، وقد تولى رئاسة ديوان الإنشاء بمصر في عهد السلطان قلاوون ، كذلك أول مَن تولى أمانة سر السلطان في العصر المملوكي ، ولد سنة 620 في القاهرة وتوفي فيها سنة 692 هجرية . للاستزادة راجع : نهاية الأرب في فنون الأدب 101/8 – 102 . وتاريخ الأدب العربي ، العصر المملوكي 473 وما بعدها .

وقوله : "فما اسطاع العدو له نقبا" إلماح إلى قول الله تعالى : "فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا" سورة الكهف ، الآية 97 .

([2]) هو يوسف بن سيف الدولة بن زمّاخ الحمداني المهمندار ، توفي على رأس القرن الثامن الهجري . انظر ترجمته في : فوات الوفيات 349/4 – 351 .

([3]) فوات الوفيات 350/4 – 351 .

وقَدْ اطْلَخَمَّ الأَمْرُ واحْتَدَمَ الـوَغَى ... وَوَهَى الجَبَانُ وَسَاءَ ظَنُّ المُجْتَرِي
لَرَأَيْتَ سَدًّا مِنْ حَدِيْدٍ مَـا يُـرَى ... فَوْقَ الفُرَاتِ وفَوْقَهُ نَارٌ تَـرَى[1]
طَفَرَتْ وقَدْ مَنَعَ الفَوَارِسُ مَـدَّهَا ... تَجْرِي ولَوْلاَ خَيْلُنَـا لَـمْ تَطْفُـرِ
ورَأَيْتَ سَيْلَ الخَيْلِ قَدْ بَلَغَ الزُّبَـى ... ومِنَ الفَوَارِسِ أَبْحُراً فِـيْ أَبْحُـرِ
لَمَّا سَـبَقْنَا أَسْـهُماً طَاشَـتْ لَنَـا ... مِـنهُمْ إِلَيْنَـا بِـالخُيُولِ الـضُمَّرِ
لَمْ يَفتَحُوا للرَمْـي مِـنْهُمْ أَعْيُنـاً ... حَتى كُحِلْـنَ بِكُـلِّ لَـدْنٍ أَسْـمَرِ
فَتَـسَابَقُوا هَرَبـاً ولَكِـنْ رَدَّهُـمْ ... دُونَ الهَزِيْمَةِ رُمْحُ كُلِّ غَـضَنْفَرِ
مَا كَانَ أَجْرَى خَيْلَنَا فِـي إِثْـرِهِمْ ... لَوْ أَنَّهَـا بِرُؤُوسِـهِمْ لَـمْ تَعْثُـرِ
كَمْ قَدْ فَلَقْنَا صَخْرَةً مِـنْ صَـخْرَةٍ ... ولَكَمْ مَلأْنَا مَحْجَراً مِـنْ مَحْجَـرِ
وَجَرَتْ دِمَاؤُهُمُ على وَجْهِ الثَّـرَى ... حَتَّى جَرَتْ مِنْهَا مَجَـارِي النَّهْـرِ
ذَهَبَ الغُبَارُ مع النَجِيْـعِ بِـصَقْلِهِ ... فَكَأَنَّـهُ فِـي غِمْـدِهِ لَـمْ يُـشْهَرِ

وصف الشاعر في هذا النص المعركة وما استخدم فيها من آلات القتال كالسيوف والرماح والسهام ، ثم بيّن كثرة خيل المسلمين وسرعتها في عبور نهر الفرات ، وتوقف عند تدفقها في النهر متعجباً من منظرها الذي يخاله الناظر من بعد سداً من حديد تغلي فوقه النيران ، وقد برع الشاعر في الربط بين الشكل الخارجي الذي يتمثل في بريق السلاح على ظهر الخيول ، والحالة النفسية للفرسان الذين يتوقون لتأديب الغزاة ، الذين تقدح عيونهم وتشتعل أرواحهم بنيران الثأر .

وقد دللت قوة أساليب هذا النص وبراعة صوره على تمكن الشاعر من أدواته الفنية ، وحُسن اختياره للألفاظ المشبعة بالحالة النفسية

---

(1) يُرى : "بضم الياء" من الرؤية ، وتَرى : "بفتح التاء" تتقد ، وقد سعى الشاعر للإفادة من إيقاع الجناس ونبرته الموسيقية التي تناسب جو المعركة .

ككلمة "اطلخم" التي نسمع من صوتها المنطوق جلبة المعركة ، وكذلك "عجاج" ، و"احتدم الوغى" .. وغيرها من الكلمات والعبارات التي توحي بقوة إحساس الشاعر بجو المعركة ، وتعكس واقعه النفسي كمسلم مبتهج بتأديب طغاة المغول والصليبيين الذين خرّبوا معظم بلاد المشرق الإسلامي .

كذلك تابع الشعراء تحرير المدن والقلاع والحصون من الاحتلال الصليبي ، وأداروا معاني الفخر والحماسة حول نصرة الله عزّ وجلّ للمسلمين ، ثم افتخروا بقوة الجيش ، ووصفوا المعارك ، وامتدحوا السلاطين والقادة ، وقد تركوا عدداً كبير من القصائد الطنانة التي خلدت انتصارات المماليك على الصليبيين([1]) ، من ذلك قول شهاب الدين محمود مفتخراً بانتصار الملك الأشرف خليل على الصليبيين سنة 690 هجرية ، وتحرير مدينة عكا من أيديهم([2]) :

اللهُ أَكْبَرُ زَالَتْ دَوْلَةُ الصُّلُبِ	وعزَّ بالتُّرْكِ دِيْنُ المُصْطَفَى العَرَبِي
هَذَا الذِي كَانتْ الآمَالُ لَوْ طَلَبَتْ	رُؤْيَاهُ فِي النَوْمِ لاسْتَحْيَتْ مِنَ الطَلَبِ
مَا بَعْدَ عكا وقَدْ هُدَّتْ قَوَاعِدُهَا	فِي البَحْرِ للتُّركِ عِنْدَ البَرِ مِنْ أَرَبِ
لَمْ يَبْقَ مِنْ بَعْدهَا للكُفْرِ إِذْ خَرِبَتْ	فِي البَحْرِ والبَرِ مَا يُنْجِي سِوَى الهَرَبِ
أُمُّ الحُرُوبِ فَكَمْ قَدْ أُنْشِئَتْ فِتَنٌ	شَابَ الوَلِيْدُ بِهَا هَوْلاً ولَمْ تَشِبِ
يَا يَوْمَ عكا لَقَدْ أَنْسَيْتِ مَا سَبَقَتْ	بِهِ الفُتُوحُ ومَا قَدْ خُطَّ فِي الكُتُبِ

---

(1) انظر مثلاً : – البشارة بفتح مدينة صفد سنة 664هـ ، شهاب الدين النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة (بدون تاريخ) ، 160/5 . – والفخر بفتح حصن المرقب سنة 684 هـ ، النجوم الزاهرة 269/7 – 271 . ومما قيل في فتح قلعة الروم سنة 691هـ ، البداية والنهاية ، طبعة دار الفكر العربي ، القاهرة (بدون تاريخ) ، 329/13 .

(2) ابن كثير : البداية والنهاية 323/13 .

لَمْ يَبْلُغْ النُّطْقُ حَدَّ الشُكرِ فِيْكَ فَمَا   عَسَى يَقُومُ بِهِ ذُو الشِّعْرِ والأَدَبِ
أَغْضَبْتِ عُبَّادَ عِيْسَى إِذْ أَبَدْتَهِمُ   للهِ أيُّ رضاً فِيْ ذَلِكَ الغَضَبِ
وأشْرَفَ الهَادِي المُصْطَفَى البَشِيْرُ على   مَا أسْلَفَ الأَشْرَفُ السُلْطَانُ مِنْ قُرْبِ
فَقَرَّ عَيْنَاً لِهَذَا الفَتْحُ وابْتَهَجَتْ   بِبُشْرِهِ الكَعْبَةُ الغَرَّاءُ فِي الحُجُبِ

ومما قِيل في وصف المعارك ، والتغنّي ببطولات المجاهدين ، والفخر بقوتهم وحُسن استعدادهم ، والإشادة بغيرتهم على الإسلام والمسلمين ، قصيدة طويلة للشاعر أحمد بن أبي المحاسن([1]) قال في مطلعها([2]) :

بَرْقُ الصَّوَارِمِ والأَبْصَارُ تُخْتَطَفُ   والنَّقْعُ يَحْكِي سَحَاباً بِالدِّما يكِفُ([3])
أَحْلَى وأَغْلَى قِيْمَةً وسَنَا   مِنْ بَرْقِ ثَغْرِ الغَوَانِي حِيْنَ تُرْتَشَفُ
وفِي قُدُودِ القِنَا مَعْنَىً شَغِفْتُ بِهِ   لاَ بِالقُدُودِ التِي زَانَهَا الهَيَفُ
ومَنْ غَدَا بِالخُدُودِ الحُمْرِ ذَا كَلَفٍ   فَإِنَنِي بِخدُودِ البِيْضِ([4]) لِيْ كَلَفُ

وبعد أن يسترسل الشاعر في تفضيل جند المسلمين أصحاب النخوة والكرامة ، الذين ينتصرون لدين الله ، على الذين يستكينون لحياة النعيم راضين بالذل والهوان ، ينتقل للحديث عن قوة عزيمة المجاهدين ، وغيرتهم على الإسلام ، ويفتخر بانتصارهم على المشركين ، من ذلك قوله([5]) :

([1]) هو أحمد بن أبي المحاسن ، يعقوب بن إبراهيم بن أبي نصر ، الطيبي ، الأسدي ... انظر ترجمته في : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، 288/16 - 290 .
([2]) مسالك الأبصار 291/16 .
([3]) يكف : يضم ويجمع ، أي أن السحاب مشمول بالدماء ، يشبه الغبار بالسحاب الذي يمطر دماءً .
([4]) البيض : السيوف .
([5]) مسالك الأبصار 291/16 - 292 .

قَامُوا لِقُــوَّةِ دِيْــنِ اللهِ مَــا وَهَنُــوا   لِمَــا أَصَــابَهُم فِيْــهِ ولاَ ضَـــعِفُوا
هُمْ كَسَّرُوا الشِّرْكَ بِالتَّوْحِيْدِ إِذْ جَبَرُوا   كَسْرًا فَلاحُوا شُمُوسًا بَعْدَمَا كَــشَفُوا
وجَاهَدُوا فِيْ سَبِيْلِ اللهِ وانْتَــصَرُوا   مِنْ بَعْدِ ظُلْمٍ ومِمَــا شَــانَهُمْ أَنِفُــوا
وهَاجَرُوا وَبِحَقٍّ جَــاهَرُوا ونَكُــوا   فِيْ بَاطِــلٍ دَفَعُــوهُ عِنْــدَمَا قَــذَفُوا
لَمَّا أَتَتْهُم حَــشُودُ الكُفْــرِ يَقْــدُمُهُمْ   رَأْسُ الضَلاَلِ الذِي فِيْ عَقْلِهِ جَنَفُ(1)

****

سُدَّتْ مَسَالِكُهُم بِالــسَيْفِ فَــافتَرقُوا   مُجَدَّلِيْنَ سُدىً مِنْ سُوْءِ مَا اقْتَرَفُــوا
وكَانَ فيه لَهُــمْ وَعْــظٌ ومُزْدَجَــرٌ   لَوْ أَنَّهُمْ عَقِلُوا الأَنْبَــاءَ أَوْ عَرفُــوا
وغَرَّهم نَيْلُهُم مِنْ حِمْصَ وهُوَ لَهُــم   كَالحَبِّ يُصْطَادُ مِنْهُ الطَائِرُ الوَجِفُ
غَابُوا عَنِ الرُّشْدِ إِذْ عَاثُوا وسَــرَّهم   ومِنْ وَرَاءِ السُّرُورِ الهَمُّ والأَسَــفُ
لجّوا وعَاموا من الطُّغْيَانِ فِي لُجَــجٍ   إِلى البُحَيْرَةِ فَانْصَاعُوا ومَا اعْتَرَفُوا
وسَاقَهُم طَمَــعٌ فِــي طَيِّــهِ جَــزَعٌ   وعَاقَهُمْ شَمَسٌ فِي ضِمنِهِ عَجَفُ(2)
حَتَّى بَدَتْ رَايَــةُ الإِسْــلامِ عَالِيَــةً   والخَيْلُ جَائِلَةٌ مِنْ حَوْلِهَا تَجِــفُ(3)

لقد ابتهج المسلمون كثيراً بفتح بعض الحصون الصليبية المنيعة ، وعبَّر الشعراء عن هذه البهجة مُباهين بجيش المسلمين من العرب والمماليك ، وقد وازن بعضهم بين فرحة المسلمين بفتح الخليفة العباسي المعتصم بالله لعمورية وفتح سلاطين المماليك للمدن والبلاد الشامية التي

---

(1) الجنف : الميل والجور .
(2) شَمَسَ الفرس شُموساً وشِماسً مَنَعَ ظهره ، والعجف : الهُزال والضعف .
(3) تجف : تضطرب ، والوجف : ضرب من سير الخيل .

احتلها الصليبيون وتحصنوا فيها قبل وصول المماليك للحكم ، من ذلك ما نراه في قول شمس الدين الصائغ([1]) في فتح مدينتي صور وعكا([2]) :

قَلْقَلْتَ أَرْضَ الشَّامِ عِنْدَ دخُولِهَا ... رَكْضاً بِجَيْشٍ كَالسَحَابِ عَرَمْرَمِ
قَدْ كَانَ وَجْهُ الشَّمْسِ غَيْرَ مُبَرقَعٍ ... لَوْلاَهم والبَدْرُ غَيْرَ مُلَثَّمِ
فَأَرَيْتَ عكَّا مَا بعَموريَةٍ ... رَأَتْ الفَوَارِسُ فِي الزَمَانِ الأَقْدَمِ
فَتْحٌ مُحَيَّا الدَّهْرِ مَوْسُومٌ بِهِ ... وزمَانُه فِي دَوْرَةٍ كَالمَوْسِمِ
مَا الرأيُ إلاَّ عِنْدَ قَلْبٍ ثَابِتٍ ... والسَيْفُ إلاّ فِي يَمِيْنِ مُصَمِمِ
قَدْ حُزْتَ صُوْراً فِيْ تَقَضِّي فَتْحِها ... فَبِشُكْرِكَ الإِسْلامُ رَطِبُ المَبْسَمِ
مَا كَانَ بَيْنَهما سِوَى يَوْمٍ فَذَا ... سَعْدٌ إلَيْهِ كُلُّ سَعْدٍ يَنْتَمِي
والجَمْعُ للأُخْتَيْنِ غَيْرُ مُحَلَّلٍ ... لَكِنْ بِهَذَا الحَالِ غَيْرُ مُحَرَّمِ

وإذا كان شعر الفخر والحماسة الجماعي الديني قد استمد حياته وقوّته في هذا العصر من الحروب والمعارك التي انتصر فيها جيش المسلمين على المغول والصليبيين ، فإن الفخر القبلي والشخصي قد انتعشا بعد القضاء على الخطر المغولي وتطهير البلاد الشامية من الوجود الصليبي ، ومن شعر الفخر والحماسة المبني على روح العصبية القبلية ، والذي يُشبه إلى حدّ كبير شعر الفخر والحماسة الجاهلي شعر صفي الدين الحلي([3]) الذي حض فيه قومه على طلب ثأر خاله ، وأثار حماستهم

([1]) هو محمد بن الحسن بن سباع ، شمس الدين الصايغ العروضي ، المتوفى سنة 722 هجرية . انظر ترجمته في : محمد بن شاكر الكتبي : فوات الوفيات 326/3 – 330 .

([2]) مسالك الأبصار 307/16 – 308 .

([3]) هو أبو المحاسن ، عبد العزيز بن سرايا بن نصر الطائي ، صفي الدين ، ولد في الحِلّة من العراق سنة 677 هجرية ، وإليها نُسب ، كان شيعياً قحّاً ، وكان عربياً صافي العروبة ، تنقل بين بغداد ومصر ، نظم

وحميتهم للانتقام من قتلته ، وكذلك الذي قاله في الفخر بقبيلته وأهله بعد أخذ ثأرهم سنة إحدى وسبعمائة هجرية ، كما في قصيدته التي مطلعها([1]):

سَلِي الرِّمَاحَ العَوَالِي عَنْ مَعَالِيْنَا   واسْتَشْهِدِي البِيْضَ هَلْ خَابَ الرَّجَا فِيْنَا

والتي يقول فيها :

قَوْمٌ إِذَا اسْتُخْصِمُوا كَانوا فَرَاعِنَةً([2])   يَوْماً ، وإِنْ حُكِّموا كَانوا مَوَازِنَا
تَدَرّعوا العَقْلَ جِلْبَاباً ، فَإِنْ حَمِيَتْ   نَارُ الوَغَى خِلْتَهُمْ فِيْهَا مَجَانِيْنَا
إِذَا ادّعَوا جَاءَتِ الدُّنْيا مُصَدِّقَةً   وإِنْ دَعَوا قَالَتْ الأَيَّامُ : آمِيْنَا
إِنَّ الزَّرازِيْرَ لَمَّا قَامَ قَائِمُهَا ،   تَوَهَّمَتْ أَنَّهَا صَارَتْ شَوَاهِيْنَا([3])
ظَنَّتْ تَأَنِّي البُزاةِ الشُّهبِ عَنْ جَزَعٍ ،   ومَا دَرَتْ أَنَّهُ قَدْ كَانَ تَهْوِيْنَا

....

إِنَّا لَقَوْمٌ أَبَتْ أَخْلاقُنَا شَرَفَاً   أَنْ نَبْتَدِي بالأَذَى مَنْ لَيْسَ يُؤْذِيْنَا
بِيْضٌ صَنَائِعُنا ، سُوْدٌ وَقَائِعُنَا   خُضْرٌ مَرَابِعُنَا ، حُمْرٌ مَوَاضِيْنَا
لاَ يَظْهَرُ العَجْزُ مِنّا دونَ نَيْلِ مُنًى   ولَوْ رَأَيْنَا المَنَايَا فِي أَمَانِيْنَا
ما أَعْوَزَتْنا فَرَامِيْنٌ نَصُولُ بِهَا ،   إلاّ جَعَلْنَا مَوَاضِيْنَا فَرَامِيْنَا([4])
إِذَا جَرَيْنَا إِلى سَبْقِ العُلَى طَلَقَاً ،   إِنْ لَمْ نَكُنْ سُبَّقاً كُنّا مُصَلِّينا([5])
تُدَافِعُ القَدَرَ المَحْتُومَ هِمَّتُنَا ،   عَنّا ، ونَخْصِمُ صَرْفَ الدَّهْرِ لَوْ شِيْنَا

في ألوان الشعر المستحدثة ، كما برع في الفنون الشعرية التقليدية ، توفي في بغداد سنة 752 هجرية . راجع : ديوان صفي الدين الحلي ، طبعة دار صادر ، بيروت (بدون تاريخ) ، ص 5 .

([1]) راجع القصيدة كاملة في : ديوان صفي الدين الحلّي 20 – 22 .

([2]) استخصموا : طُلِب خصامهم . الفراعنة : العتاة المتمردون .

([3]) الزّرازير : مفردها زرزور ، وهو طائر صغير الحجم . الشواهين : مفردها شاهين ، وهو نوع من الصقور ، وتتسم بطول الجناحين .

([4]) الفرامين : مفردها فرامان ، وهو عدهد السلطان للولاة .

([5]) المصلي : الذي يتلو السابق .

نغشى الخُطُوبَ بأيْدِينا ، فَنَدْفَعُها ، وإنْ دَهَتْنا دَفَعْناها بأيْدِينَا
مُلْكٌ ، إذَا فُوِّقَتْ نَبْلُ العَدوِّ لَنا رَمَتْ عَزَائِمَهُ مَنْ بَاتَ يَرْمِينَا
عَزَائِمُ كَالنُّجومِ الشُّهْبِ ثَاقِبَةٌ مَا زَالَ يُحْرقُ منهنَّ الشَّيَاطِينَا

لا يكاد تختلف معاني فخر صفي الدين الحلّي عن معاني فخر شعراء الجاهلية ، فهو يعدد مناقب قومه من رجاحة عقل ، وعدل ، وصدق ، وعلو منزلة .. ، ويقابلها بكل معاني الشجاعة والقوة التي يتصف بها قومه إذا استثيروا .

أما الفخر الشخصي فتختلف الصفات والمعاني التي افتخر بها الشعراء باختلاف مذاهبهم ودوافعهم ، فمنهم مَنْ افتخر بالشجاعة والنخوة وعراقة الأصل والكرم ، وهنالك مَنْ افتخر بقوة الإيمان والصبر على المحن والشدائد ، أو العفة والقناعة ، أو النبوغ وسعة العلم .. وشواهد ذلك كثيرة نذكر منها قول ابن الوردي([1]) مفتخراً بالقناعة وعفة النفس([2]):

إنِّي امْرؤٌ قَلَّ بَيْنَ النَاسِ أَشْبَاهِي إذْ لاَ أَزَالُ غَنِيَّ النَفْسِ باللهِ
رَفَعْتُ كُلِّي عَنِ الأَصْحَابِ كُلِّهِم فَلاَ أُثْقِلُ فِي مَالٍ ولاَ جَاهِ

وقوله في الثقة بالله والصبر على النوائب([3]) :

ولَسْتُ أَخَافُ طَاعُوناً كَغَيْرِي فَما هُوَ غَيْرُ إحْدَى الحُسْنَيَيْن
فَإنْ أَمُتْ استَرَحْتُ مِن الأَعَادِي وإنْ عِشْتُ إشْتَفَتْ أُذُنِي وعَيْنِي

وكذلك فخر ابن الشحنة بسعة علمه ونبوغه في التدريس([1]) :

([1]) هو زين الدين ، عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس ، المعري الشافعي ، الإمام الفقيه ، الأديب الشاعر ، صاحب العديد من الكتب والمصنفات ، المتوفى سنة 749 للهجرة . للاستزادة راجع : فوات الوفيات 3/157 – 160 .

([2]) الحركة الشعرية زمن المماليك 188 .

([3]) الحركة الشعرية زمن المماليك 188 .

أَضَــــاروهَا مَنَــــاقِبِي الكِبَــــارُ   ومَــــنْ واللهِ للـــدُنْيا الفَخَــــارُ
عَلَوْتُ بِــسُؤْددٍ وعلُــوم شَــرْعٍ   لَها فِــي سَــائِرِ الــدُنْيَا انْتِــشَارُ
وَفِكْرٍ صَــائِبٍ فِــي كُــلِّ فَــن   إِلَـــى تَحْقِيْقِـــهِ أَبَـــداً يُـــصَارُ
سَمَوْتُ لِمَنْصِبِ الإفْتَــاءِ طِفْــلاً   وكَانَ لَــهُ إِلَــى قُرْبِــي ابْتِــدَارُ
وكَمْ قَرَرْتُ فِي الكَــشَّافِ دَرْسَــاً   عَظِيْمَــاً قَبْــلَ مَــا دَارَ العِــذَارُ

إلى غير ذلك من الشواهد التي تمثل مختلف الصفات والمعاني التي افتخر بها شعراء العصر المملوكي .

وقد تنوعت بواعث شعر الفخر والحماسة في **العصر العثمــاني** ، واستمر تدفقه مواكباً فتوحات جيش المسلمين وانتصاراته ، يحض علــى الانتصار للإسلام ، ويُمجّد التــصدي لأعــداء الــدين مــن المــشركين والصليبيين ، ويثير نخوة السلاطين والقادة ويحفزهم على الاقتصاص من الخارجين عن وحدة الصف ، ومن الذين يروعون المــسلمين ويعتــدون على قوافل التجارة والحجيج ، ويُقرّض البطولات ، ويصف المعــارك ، ويتغنّى بالانتصارات .

وقد واكب الشعراء فتوحات العثمانيين شرقاً وغرباً ، وأورثونا كمّاً هائلاً من شعر الفخر والحماسة ، فمن قصيدة طويلة قالها فيض الله بــن أحمد القاف عندما فتح السلطان مراد بن سليم مدينة "تبريــز" ســنة 993

([1]) هو عبد البر بن محمد الحنفي ، ولد في حلب عام 851 هجرية ، وقد تولى القضاء فــي حلــب ثــم فــي القاهرة، وأصبح من المقربين من السلطان الغوري ، له العديد من المؤلفات ، توفي عام 931 للهجــرة . الحركة الشعرية زمن المماليك 189 .

هجرية ، نذكر فخره بجيش المسلمين ، الذي يمجد فيه بطولة الروم المسلمين ، ويصف قوة بأسهم في المعركة([1]) :

أَتَتْ إِلَيْهِم جيُوشُ الرُوْمِ يَقْدُمها ... مِنْ بَأسِهَا المُنْذِرَان الخَوْفُ والحَذَرُ

وَعِنْدَمَا اقْتَرَبَ الجَيْشُ العَرَمْرَمُ مِن ... تَبْرِيزَ ثمَّ بَدَا فِي ذَاتِهِمْ خَوَرُ

فَشَجَّعُوا أَنفساً مِنْهم قَدْ إمْتَلأَتْ ... جُبْناً وَقَدْ طَاشَتْ الأَحْلامُ وَالفِكَرُ

ظَنُّوا بِأَنَّ اللَيَالِي نَحْوَهُم نَظَرَتْ ... فَأَخْطَأَ الظَنُّ لَمَّا أَخطأَ النَّظَرُ

وأَمَّلُوا سَحَراً مِنْ لَيْلِ كَرْبِهِمُ ... فَلَمْ يَكُنْ لِدُجَى أَوْصَبِهِم سَحَرُ

لمَّا رَأَى بَأْسَنَا حُمْرُ الرُءُوس إذَا ... فَرُّوا كَمَا فَرَّ مِن أُسْدِ الشَّرَى الحُمُرُ

قُلُوبُهُمْ خَشِيَتْ أَبْصَارُهُمْ عَمِيَتْ ... شَاهَتْ وجُوهُهُمْ خَوْفاً وَقَدْ خَسِرُوا

سَطَوْا بِهِم فَتَرَاهُم ذَا يَفِرُّ وَذَا ... عَانٍ أَسِيْرٌ وَذَا فِي التُّرْبِ مُنْعَفِرُ

والنَّقْعُ لَيْلٌ بَهِيْمٌ لاَ نُجُومَ بِهِ ... تَلُوحُ لِلْعَيْنِ إلاَّ البِيْضُ وَالسُّمْرُ

فَالبِيْضُ فِي يَدِهِم صَارتْ صَوَالِجةً ... والأَرْؤُسُ الحُمْرُ فِيْمَا بَيْنَهُم أُكَرُ

يفتخر الشاعر بقوة الجيش العثماني وكثرة عدده ، ويخص أبناء عرقه الروم بقوة البأس وكل صفات الشجاعة والإقدام في المعارك ، ثم يصف المعركة التي خاضوها ، وكيف هزموا الأعداء شرّ هزيمة ، وفرّقوا شمل جيشهم ، فلا يرى منه إلا هارب يطلب النجاة ، أو أسير ، أو قتيل ..

وكذلك فخر عبد اللطيف بن بهاء البَعْلِيّ([1]) بجيش المسلمين عندما فتح السلطان محمد خان الرابع قلعة "إيوار" سنة أربع وسبعين وألف([2]) :

([1]) خلاصة الأثر 290/3 .

بالفَتْحِ زَادَ الـدِّيْنُ عِـزًّا واعْـتِلاَ   والله أَعْظَـمَ مِنَّـةً وتَفَـضُّلاَ
بالنَّصْرِ أَنْجَـزَ وَعْـدَهُ سُـبْحَانَه   وأعَزَّ جُنْدَ المُسْلِمِيْنَ أُولِـي الـوَلاَ
هَبّوا كَما هَبَّ النَّـسِيْمُ إذا سَـرَى   يَغْتَصُّ عُرْضُ الأَرْضِ مِنْهم والفَلاَ
فِي جَحْفَلٍ سَتَروا البَسِيْطَةَ كَثْـرَةً   لَمْ تُلْفِ مِـثْلَهم النَّـوَاظِرُ جَحْفَـلاَ
أَرْبَوا على التَّعْدَادِ حَصْراً واعْتَلَوا   مِنْ حَيْث لاَ أَدْرِي أَواخِـرَهم ولاَ
فَكَأَنَّ وَجْهَ الأَرْضِ حَلْقَـةُ خَـاتَمٍ   بِهِمُ ومَـاءَ البَحْـرِ قَطْـرٌ أُسْـبِلاَ
ثَبَتُوا ثَبَـاتَ الرَّاسِـيَاتِ تَـصَبُّراً   مَنْ يَلْتَقِـيهِمْ يَلْـقَ مِـنهم أَجْـبُلاَ
شَاكِي السِّلاَحِ بِكُلِّ أَبْـيَضَ مِخْـذَمٍ   ما شِيْمَ إلاّ قَـدْ أَصَـابَ المَقْـتَلاَ
حَتى إذا حَمِيَ الوَطِيْسُ لَدَى الوَغَى   لَـمْ تَلْـقَ إلاّ بَـسِلاً مُسْتَبْـسِلاَ
أَنِفَتْ سيوفُهمُ الغُمُوْدَ فَـلاَ تَـرَى   إلاَ صَـقِيْلاً فـي نَجِيْـعٍ أُنْهِـلاَ
سَالَتْ بِهِ البَطْحَاءُ حتـى لا تَـرَى   طِرْفاً بِغَيْرِ دَمِ الرِّقَـابِ مُحَجَّـلاَ
مِن كُلِّ عِلْجٍ ذَاهِـلٍ عَـن نَفْـسِهِ   إِذْ لاَ يَـرَى مَنْـأًى ولاَ مُتَحَـوَّلاَ
مُلِـئَ اللَّعِـيْنُ مَخَافَـةً لَمَّـا رَأَى   فِي الحَرْبِ شِـدَّتَهم وزَادَ تَزَلْـزُلاَ
فَغَـدا يُنَـادِي حَـسْرَةً وتَأَسُّـفاً   ياوَيْلَتَـاه العُمْـرُ ضَـاعَ سَـبَهْلَلاَ

بدأ الشاعر فخره بإظهار أثر هذا الفتح في نصرة الدين الإسلامي، وقد استلهم قول الله تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْـصُرْكُم ويُثَبِّتْ أَقْدَامَكُم"([3]) ، ثم انتقل للحديث عن توثب جند المسلمين وتوقهم للقاء

([1]) هو عبد اللطيف بن بهاء الدين بن عبد الباقي البعلي – نسبة إلى بعلبك – اشتغل بالقـضاء فـي طـرابلس الشام ، ثم بلغراد ، ثم قلبه ، له العديد من المصنفات والشروح ، منها شرح ديوان أبي فراس الحمـداني ، وشرح فصوص ديوان ابن عربي ، توفي بقلبه سنة 1082هـ . نفحة الريحانة 394/2 .

([2]) نفحة الريحانة 396/2 .

([3]) سورة محمد ، الآية 7 .

جيش الأعداء ، وأسهب في وصف الجيش وكثرة عدد أفراده ، ثم وصف المعركة ، وافتخر بقوة الجند وحُسن بلائهم وانتصارهم على الأعداء .

وقد التقت معاني الشعر الذي قاله الشعراء في الفخر بانتصارات جيش المسلمين حول الحديث عن فضل الله تعالى على المسلمين ، وتوفيقه لهم في إحراز النصر ، والمباهاة بتفوق الإسلام على ملة الكفر ، ثم الفخر بقوة جيش المسلمين وكثرة عدده وعتاده ، ثم وصف المعركة .. ذلك ما افتخر به الشعراء في بلاد الروم والشام ، وشعراء مصر والمغرب العربي ، وشعراء اليمن وشبه الجزيرة العربية .. ، ونكتفي في هذا المقام بالإشارة إلى قصيدة حسين بن غنام([1]) التي يقول في مطلعها([2]):

كَشَفَ الحَـقُّ ظُلْمَـةَ الأَغْـلاسِ ومَحَا الـدِّينُ جُمْلَـةَ الأَوْجَـاسِ

وكذلك قصيدة التي يستهلها بقوله([3]) :

تَلألأَ نُورُ الحَقِّ وانْصَدَعَ الفَجْـرُ ودَيْجُورُ لَيْلِ الشِّرْكِ مَزَّقَهُ الطُّهْرُ

كذلك افتخر العديد من الشعراء بقادة جند المسلمين ، وتغنوا ببطولاتهم وحنكتهم في مواجهة الأعداء ، من ذلك قول عليّ بن نشوان بن

([1]) شاعر فقيه ، ولد في الاحساء بشبه الجزيرة العربية ، واشتغل بتدريس اللغة العربية وكتابة التاريخ ، من مصنفاته كتاب في تاريخ الدعوة ، وكتاب العقد الثمين في أصول الدين ، وكتابه روضة الأفكار والأفهام، لمرتاد حال الإمام ، وتعداد غزوات ذوي الإسلام ، مابين 1150هـ - 1211هـ ، المعروف بتاريخ ابن غنام ، توفي عام 1225 هجرية . راجع ترجمته في : عبد الله الحامد : الشعر في الجزيرة العربية ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب السعودي ، الرياض 1986م ، ص 177 .

([2]) حسين بن غنام : روضة الأفكار والأفهام ، لمرتاد حال الإمام ، وتعداد غزوات ذوي الإسلام ، الطبعة الأولى ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة 1949م ، 86/2 .

([3]) روضة الأفكار والأفهام 237/2 .

سعيد الحميري([1]) بلسان حال الإمام المنصور بالله بن محمد صاحب اليمن ، مفتخراً ببطولته وانتصاراته([2]) :

وكَتِيْبَةٍ مَوْصُولَةٍ بِكَتِيْبَةٍ ... تَخْتَالُ في حَلَق الحَدِيْدِ المُدبجِ
وتَطَيُّبِي بعَجَاجِ نَقْعٍ ثَائِرٍ ... ودَمٍ لأَثْوَابِ الكَمِيِّ مُضَرِّجِ
ولَقَدْ شَهِدْتُ الخَيْلَ تَقْرَعُ بِالقَنَا ... فِي حَافِظٍ نَجْدِ الوَغَى مُتَوَهِّجِ
ولَقَدْ شَهِدْتُ الليلَ حَتى خِلْتُ مَا ... أَيْقَنْتُ مِنه كَالقَمِيْصِ المُدْمَجِ
ولَقَدْ دَخَلْتُ على السِّبَاعِ وجَارَهَا ... وولَجْتُ غَيْلَ ضَرَاغِمٍ لَمْ تُولَجِ
والشَّمْسُ فِيْ وَسَطِ السماءِ مُظَلَّةٌ ... والجَوُّ أَقْيَمُ بِالعَجَاجِ المُرْهَجِ([3])

ومثل هذا الفخر شعر ابن عثيمين في فتح "حائل" ، ومنه قوله مباهياً بقوة القائد والجيش ، واصفاً انتصارهم الساحق على الأعداء([4]) :

ويَوْمٍ كَسَوْتَ الجَوَّ فيه قَسَاطِلا ... أَعَادَ النهَارَ المُشْرِقَ النُّورَ مُظْلِما
ملأْتَ من الأَسْمَاعِ رَعْداً سَمَاءَه ... على كُلِّ بَاغٍ قَدْ طَغَى يُمْطِرُ الدما
فَمَا تَنْطِقُ الأَسْيَافُ إلاَ تَصَلْصُلا ... ولاَ تَنْطِقُ الأَبْطَالُ إلاَّ تَغَمْغُمَا
وكَمْ خَدَجَتْ فيه الجِيَادُ مَهَارَهَا ... وعَادَ كُمَيْتُ اللونِ مِنْهَا مُسَوَّمَا([5])
ولَمْ يَعْرِفْ النَّاعِي الحَمِيْمُ حَمِيْمَه ... غَدَاةَ رَآه بِالغُبَارِ مُلَثَّمَا
فَإِن أَصْحَرُوا فَالخَيْلُ قَيْدُ شَرِيْدِهم ... إنْ حُصِّنُوا ذَابُوا لُحوماً وأَعْظُمَا
أَقَمْتَ بِهِ عَرْشَ الهُدَى بَعْدَمَا هَوَى ... وقَوَّمْتَه بِالبِيْضِ حتى تَقَوَّمَا

([1]) يقول محقق كتاب نفحة الريحانة في ترجمة الشاعر : "ليس هذا ابن نشوان بن سعيد الحميري ؛ فإن نشوان الحميري صاحب "شمس العلوم" توفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وعليٌّ هذا ولي الأعمال الكبار في أيام الإمام القاسم ، وكانت وفاة الإمام القاسم سنة تسع وعشرين وألف" . نفحة الريحانة 511/3 .

([2]) نفحة الريحانة 512/3 .

([3]) المرهج : المُثَار .

([4]) الشعر في الجزيرة العربية 123 .

([5]) خدجت : ولدت ناقصة لم يكمل خلقها .

وقد اتكأ بعض الشعراء على الحكم والأمثال لاستنهاض الهمم وإثارة حماسة القادة وجند المسلمين ، من ذلك قول أحمد بن شرف([1]) :

وأنَّى يَحُوطُ المُلْكَ إلاّ سَمَيْدَعٌ ... يَخُوضُ لَظَى الهَيْجَاءِ ليس بِهَائِبِ
وَلاَ دِيْنَ إلاّ بِالجِهَادِ قِوَامُهُ ... ولاَ أَمْنَ إلاَّ بَعْدَ عَدْلِ القَوَاضِبِ
وَلاَ مَجْدَ إلاّ بِالشجاعةِ والنَدَى ... وجَرِّ العَوَالي فوقَ مَجْرَى السَلاهِبِ
فَكَيْفَ تَنَامُ العَيْنُ مِنْكَ عن العِدَى ... وَقَدْ أَوْقَدُوا لِلحَرْبِ نَارَ الحُبَاحِب([2])
فَبِالبِيْضِ مع سُمْرِ القَنَا تُدْرِكُ المُنَى ... وبِالجُوْدِ والإِقْدَامِ نَيْلُ المَطَالِبِ

ومن شعر استنهاض الهمم نذكر أيضاً قصيدة إبراهيم بن صالح المهتدي([3]) التي يحث فيها إمام اليمن إسماعيل بن القاسم الزيدي على الجهاد والانتصار لحجاج البيت الحرام ، سنة ثلاث وثمانين بعد الألف ، ومنها قوله([4]) :

أَبَى اللهُ والدِّيْنُ الحَنِيْفُ وصَارِمٌ ... على عَاتِقِ الإِسْلامِ منه نِجَادُ
ويَأْبَى أَمِيْرُ المُؤمِنِيْنَ وبَأْسُهُ ... وفي الثَّغْرِ والرَّأْيِ السَّدِيْدِ سَدَادُ
فَيَا أَيُّها المَوْلَى الخَلِيْفَةُ عَزْمَةً ... فَقَدْ شَابَ فَوْدٌ واسْتَطَارَ فُؤَادُ
فَلاَ تَبْرِ أَقْلاماً سِوَى مَنْ لَهَاذِمٍ ... لَهَا مِنْ دِمَاءِ المَارِقِيْنَ مِدَادُ
ولاَ كُتُباً إلاّ الكَتَائِبُ والظُّبَى ... ولاَ رُسُلاً إلاّ قَناً وجِيَادُ

([1]) الشعر في الجزيرة العربية 125 -126 .

([2]) الحباحب : ذباب ذو ألأوان ، يطير في ذنبه شعاع كالسراج ، ويضرب المثل بنار الحباب في الضعف .

([3]) هو إبراهيم بن صالح المهتدي الهندي ، أسلم والده في صنعاء ، وحسن إسلامه ، توفي سنة مائة وألف هجرية . راجع ترجمته في : نفحة الريحانة 565/3 .

([4]) نفحة الريحانة 568/3 – 570 .

يحث الشاعر إمام اليمن على الجهاد والتصدي للخارجين عن سلطة الدولة ، مبيناً أن سداد الرأي والتفرغ لتصنيف الكتب([1]) لا يعفيه من إعداد العدة للتصدي للمعتدين .

وكذلك قصيدة طويلة لابن إمام اليمن الشاعر عليّ بن إسماعيل بن القاسم الزيدي يثير فيها حماسة والده على الجهاد لنجدة هؤلاء الحجاج اليمنيين ، وتمكينهم من الوصول إلى مكة لأداء مناسك الحج ، منها قوله([2]):

لَعَمْرُكَ ليسَ يُدرِك بالتَّوانِي ... ولاَ بِالعَجْزِ غَاياتُ الأَمَانِي
فَما نَيْلُ المَعَالي قَطُّ إلاَّ ... بِبِيْضِ الهِنْدِ والسُّمْرِ اللِّدانِ
وحَزْمٍ دُونه الشُّمُّ الرَّواسِي ... وعَزْمٍ لَمْ يَكُنْ أَبَداً يُوانِي

....

وإنَّ لَدَيْكَ مِنْ عَدْنَانَ حَقًّا ... وَمِنْ قَحْطَانَ فُرسَانُ الطِّعَانِ
لِيُوثٌ إنْ دَعَوتَهمُ أَجَابوا ... بكُلِّ سَمَيْدَعٍ رَحْبِ الجَنَانِ([3])
فَشَاوِرْهم ولاطِفْهُمْ وَأَحْسِنْ ... إِلَيْهِم بالعَطَاءِ وباللِّسَانِ
وَلاَ تَجْعَلْ كِتَابَكَ للأَعَادِي ... سِوَى السَّيْفِ المُهَنَّدِ والسِّنَانِ
فَأَرْسِلْ نَحْوَ مَنْ نَاوَاكَ جَيْشاً ... أَوائِلُه بأَرْضِ القَيْرُوَانِ
تَسِيْرُ جِيَادُه فِي كُلِّ قُطْرٍ ... إِلى الأَعْدَاءِ مِرْخَابِ العِنَانِ
فَتَعْلُو هَامَ مَنْ نَاوَاكَ قَسْراً ... وَتُرْغِمُ بِالمَوَاضِي كُلَّ شَانِ

([1]) اشتغل الإمام إسماعيل بن القاسم الزيدي في العلوم الشرعية ، وصنف العديد من الكتب ، منها "العقيدة الصحيحة في الدين النصيحة" وكتاب "شرح جامع الأصول" لابن الأثير .. توفي سنة 1087 هجرية .
انظر : نفحة الريحانة 249/3 .

([2]) نفحة الريحانة 261/3 – 262 .

([3]) السميدع : الشجاع .

فَـــإِنَّ اللهَ رَبَـــكَ قَــدْ تَوَالَـــتْ عَوَائِــــدُه بِعَـــادَاتٍ حِـــسَانِ
وَعَـــوَّدَكَ الجَمِيْــلَ بِكُــلِّ خَيْـــرٍ وَقَــدْ شَـــاهَدْتَ ذَلِــكَ بِالعِيَـــانِ

استهل الشاعر قصيدته ببعض المعاني الحكيمة التي تبين فضل الجهاد والوقوف في وجه الأعداء ، ثم يذكّر والده بأن لديه فرسان أقوياء من أصول عربية عريقة ، ويشير عليه أن يُحسن مُعاملتهم ، ويحثه على عدم مهادنة الأعداء ، وأن يرسل جيشاً جراراً يتصدى لهم ويخضعهم لسلطانه ، وأن الله تعالى سينصره ويؤيده كما أيده وأحسن إليه من قبل .

أما الفخر القبلي والشخصي فقد كان نصيبه وافراً – أيضاً – في هذا العصر ، وإذا كانت معاني الفخر المنبثق من روح العصبية القبلية محصورة في حدود عراقة الأصل ، والشجاعة ، والكرم ، والحلم ، فإن معاني الفخر الشخصي تنوعت بتنوع حالات الشعراء وما يُباهون به من صفات ومفاخر ، ومن شواهد الفخر القبلي نذكر قول علي بن إسماعيل الزيدي([1]) :

أَنا مِــنْ قَــوْمٍ إِذا مَــا غَــضِبُوا أَطْعَموا الأَرْمَاحَ حَبَّــاتِ القُلُــوبِ
وَهُمْ فِــي الـسِّلْمِ كَالمَــاءِ صَــفَا لِــــصَدِيقٍ وحَمِــــيْمٍ وقَرِيْــــبِ
فَهُـــمُ فَخْــرِي وفِــيْهِم قُــدْوَتِي وَبِهِمْ نِلْتُ مِــنَ العَلْيَــا نَــصِيْبِي
وبِفَـــضْلِ اللهِ رَبِّـــي لَـــمْ أَزَلْ فِي مَرَاقِي العِزِّ والعَيْشِ الرَّطِيْــبِ

([1]) نفحة الريحانة 3/259 – 260 .

لقد استمد الشاعر من سيرة والده إمام اليمن وانتصاراته ، ومن عزة قومه ومآثرهم مادة لفخره ، وكذلك فخر الأمير منجك الجركسي الذي يعج به ديوانه([1]) ، ومنه قوله([2]) :

مَا كُنْتُ أَرْضَى بِالمَجَرَّةِ مَورِداً ... وظِلاَلُهَا وأَحِبَتِي مَادَامُوا
قَوْمٌ صَغِيْرهُمُ كَبِيْرٌ فِي العُلاَ ... يَهْوَى الجَمِيْلَ ولَمْ يَرُعْهُ فِطَامُ
قَوْمٌ إذا سُلَّتْ ذكورُ سيُوفِهِم ... قَتَلَ النِّسَاءَ الهَمُّ والأَوْهَامُ
غَيْرِي يُبَالِي بِالفَخَارِ وإنني ... فَحْلُ الرِّجَالِ وَرُتْبَةٌ ومَقَامُ
إذْ مَنْشَئِي قَدْ كَانَ تَحتَ سُرَادِقٍ ... خُدَّامُهَا الصَّمْصَامُ والقُمْقَامُ([3])

ومن شعراء الحماسة والفخر الشخصي نذكر حسين بن كمال الدين الحسيني([4]) الذي اعتز كثيراً بنفسه ، وفاخر بمناقبه وصفاته ، من ذلك ما يشتمل عليه قوله ([5]):

وإنِّي صَبُورٌ عِنْدَ كُلِّ مُلِمَّةٍ ... يَشِيبُ لَهَا فَوْدٌ ويَحْدَوْدِبُ الظَهْرُ
ولاَ ارْتَاعَ لِي قَلْبٌ لِخَطْبٍ إذا غَدَا ... عَلَيَّ له الإبْرَامُ والنَّهْيُ والأَمْرُ
فَلاَ خَيْرَ فِي قَلْبٍ أَبَتْ أَنْ تُذِيبَه ... خُطُوبٌ فَلولاَ السَّبْكُ ما عُرِفَ التِّبْرُ

([1]) هو الأمير منجك بن الأمير محمد بن منجك الجركسي ، ولد بدمشق سنة 1007 للهجرة ، اجتهد في تحصيل العلم ، وتبحر في علوم الحديث والأدب ، له ديوان شعر مشهور ، عاش حياة مترفة ، وقد مدحه شعراء عصره ، توفي سنة 1080 هجرية . ريحانة الألبا 232/1 . وانظر : خلاصة الأثر 409/4 .

([2]) تاريخ الأدب العربي – العصر العثماني 174 – 175 .

([3]) السرادق الخيمة الكبيرة . الصمصام : السيف . القمقام : الكريم ، كثير العطاء .

([4]) هو حسين بن كمال الدين بن محمد بن حسين بن محمد بن حمزة الحسيني ، ولد سنة 1031 هجرية ، سافر إلى بلاد الروم وأقام بها زمناً طويلاً ، ثم عاد إلى دمشق ، وصار نائباً بالمحكمة الكبرى ، ودرّس بالمدرسة الفارسية ، جمعاً كتاباً سمّاه "التذكرة الحسينية" ذكره فيه بعض الشعراء المتقدمين إضافة إلى بعض شعراء عصره ، وختمه بذكر الكثير من شعره ، توفي سنة 1072 هجرية . راجع ترجمته في : خلاصة الأثر 105/2 . ونفحة الريحانة 20/2 .

([5]) نفحة الريحانة 26/2 – 28 .

وَقَدْ زَادَنِي جَوْرُ الزمـــانِ تأرُّجـــاً كَمَا زَادَ نَشْرَ المِسْكِ فِي سَحْقِهِ الفِهْرُ
وإِنْ لاحَ لِيْ فوقَ السِّمَاكَيْنِ مَطْلَبٌ فَلاَ المُرْتَقَى صَعْبٌ عَلَيَّ ولاَ وَعْــرُ
ولَــسْتُ بِهَيَّـــابٍ لِيَــوْمِ كَرِيْهَـــةٍ وقَدْ صَافَحَتْ فِيــه المُهَنَّــدَةُ البُتْــرُ
فَإِنْ خَانَنِي دَهْرِي فَمَا خَانَنِي الحِجَا وإِنْ خَذَلَتْنِي الصَّحْبُ لَمْ يَخْذُلِ الصبْرُ
ولاَ أَشْتَكِي خَطْبـــاً يُــشَدِّدُ وَطْــأَةً عَلَيَّ فَلَولاَ العُسْرُ مَـــا خُلِـقَ اليُـسْرُ
ولستُ الذي يُمْضِي اللَيَالِيَ أَمَانِيـــا يَضِيْعُ سُدىً فِي شَأْنِها الوَقْتُ والفِكْرُ
ولاَ أَكْرَهُ الخَطْــبَ المُلِــمَّ فَرُبَمـــا أَتَى النَّفْعُ مِنْ حَالٍ تَرَاءَى بِهِ الــضُرُّ
ولله أَلْطَـــافٌ يَــــدِقُّ خَفَاؤُهـــا فَكَمْ خِيْفَ أَمْرٌ كانَ فِي ضِمْنِهِ النصرُ
وكَمْ عَمَّنِي بِالفَضْلِ والــنِّعَمِ التــي يَقِلُّ عَلَيْهـــا مِنِّــيَ الحَمْــدُ والــشُكْرُ
إِذَا رُمْتُ أُحْصِي وَصْفَها بِبَيَانِهـــا فَهَيْهَات يُحْصَى الرَّمْلُ أَوْ يُحْصَرُ القَطْرُ

وشعر الفخر الشخصي في هذا العصر كثيــر متنــوع المعـــاني ، فمــن الشعراء مَن افتخر بشجاعته وقوة إرادته ، ومنهم مَن افتخر بسعة علمــه ورجاحة عقله ، وهنالك مَن افتخر بحسبه ونسبه ..([1]) .

([1]) انظر مثلاً : – الشعر في الجزيرة العربية 340 . – تاريخ الأدب العربــي ، العــصر العثمــاني 135 . – نفحة الريحانة 2/88 – 90 ، 2/613 .

الغزل في العصر المملوكي :

لم يختلف الغزل في العصر المملوكي عن غيره من فنون الشعر . فكما أن الشعراء لم يتنصلوا من تراث أسلافهم ، كذلك لم يكتفوا بالسير في ركبهم ، بل استجابوا لمتغيرات عصرهم ، ووسموا شعرهم بسمات تميزه عن شعر العصور التي سبقته ، وقد وجدناهم لا يفوتون فرصة يمكن أن يبتكروا فيها معنىً جديداً إلا وحاولوا اغتنامها .

وكما هو معروف فقد جاء الغزل في صدر قصيدة المدح سيراً على منهج القدماء في بناء القصيدة العربية ، كما أفردت له القصائد الطوال ، واختص به بعض الشعراء في كل عصر من عصور الأدب العربي ، ولم تختلف طرائق شعراء العصر المملوكي عن سابقيهم ، فمنهم مَن زَيَّن به صدر قصيدته كما هو الحال عند صفي الدين الحليّ وأبي الحسين الجزار والعديد من الشعراء ، ومنهم من غلب شعر الغزل على باقي فنون شعره ، كالشاب الظريف الذي اشتهر بشعر الغزل . ومما جاء في مقدمات قصائد المدح نذكر المقدمة الغزلية للقصيدة التي مدح بها أبو الحسين الجزار([1]) صديقه الشاعر جمال الدين ابن مطروح ، التي يقول فيها([2]):

([1]) هو جمال الدين يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد المعروف بالجزار – لأنه عمل مع والده في الجزارة – ، ولد بالفسطاط بمصر سنة 601 هجرية ، وتلقى علومه فيها ، واجتمع هناك بالعديد من شعراء عصره ، كابن مطروح وابن أبي الأصبع والوراق والسراج والبوصيري وابن دانيال ، توفي سنة 679 هجرية . انظر ترجمته في : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، الطبعة الأولى ، دار الفكر ، دمشق 1979م ، 364/5 .

([2]) أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، طبعة دار الثقافة ، بيروت (بدون تاريخ) ، 265/6 – 266 .

هوَ ذَا الربْعُ ولِيْ نَفْــسٌ مَــشُوقَهْ ... فَاحْبِسِ الركْبَ عَسَى أَقْضِي حُقُوْقَهْ
تَتَبَيْحٌ بِــي فِــيْ شَــرْعِ الهَــوَى ... بَعْدَ ذَاكَ البِرّ أَنْ أَرْضَــى عُقُوْقَــهْ
لَسْتُ أَنْسَى فِيْهِ لَــيْلاتٍ مَــضَتْ ... مَعَ مَنْ أَهْــوَى وَسَــاعَاتٍ أَنِيْقَــهْ
ولَــئِنْ أَضْــحَى مَجَــازاً بُعْــدُهُمْ ... فَغَرَامِــي فِيْــهِ مَــا زَالَ حَقِيْقَــهْ
يَا صَدِيْقِي والكَــرِيْمُ الحُــرُّ فِــيْ ... مِثْلِ هَذا الوَقْتِ لاَ يَنْسَى صَــدِيْقَهْ
ضَعْ يَداً مِنْكَ عَلَىْ قَلْبِــي عَــسَى ... أَنْ تُهَــدَّى بَــيْنَ جَنْبَــيَّ خُفُوْقَــهْ
فَاضَ دَمْعِي مُذْ رَأَى رَبْعَ الهَــوَى ... ولَكَمْ فَــاضَ وَقَــدْ شَــامَ بُرُوقَــهْ
نَفَــدَ اللُّؤْلُــؤُ مِــنْ أَدْمُعِــه ... فَغَدَا يَنْثُــرُ فِــي التُّــرْبِ عَقِيْقَــهْ
قِفْ مَعِي وَاسْتَوقِفِ الرَكْبَ فَــإِنْ ... لَمْ يَقِفْ فَاتْرُكْهُ يَمْــضِي وَطَرِيْقَــهْ
فَهْــــيَ أَرْضٌ قَلَّمَــــا يَلْحَقُهَــــا ... آمِلٌ ، والركْبُ لَمْ أَعْــدَمْ لحُوقَــهْ
طَالَمَا اِسْــتَجْلَيْتُ فِــيْ أَرْجَئِهــا ... مَنْ يَتِيْهُ البَدْرُ إِذْ يُــدْعَى شَــقِيْقَهْ
يَفْــضَحُ الــوَرْدَ احْمِــرَاراً خَــدُّه ... وَتَوَدُّ الخَمْــرُ لَــوْ تُــشْبِهُ رِيْقَــهْ
فَبِــهِ الحُــسْنُ خَلِيْــقٌ لَــمْ يَــزَلْ ... وَالمَعَالِي بِــابْنِ مَطْــرُوْحٍ خَلِيْقَــهْ

كذلك لم تختلف اتجاهات الشعراء عن سابقيهم ، فمنهم من اتجــه وجهة الغزل العفيف ، ومنهم من اتجه إلى الغزل الصريح ، وهنالك مَنْ أغواه الغزل بالغلمان فحذا حذو بعض شعراء العصر العباسي .

1- الغزل العفيف :

ربما كان من نافلة القول الإشارة إلى أنّ الغزل العفيف هو الغزل الذي ينأى فيه الشاعر عن الوصف الحسي لجسد المرأة بمفاتنه المختلفة ، ويركن إلى الوصف المعنوي الذي يعتمد على تصوير لــواعج الــشوق والحنين ، ومعاني الصد والهجران والأرق والعذاب ..

فمن حديث شعراء الحب العفيف عن شوقهم ولـوعتهم نـورد أبياتـ للشاعر إبراهيم الإسعردي([1]) يعبر فيها عن شوقه للحبيب الذي يسكن فؤاده ، يقول فيها ([2]) :

كُنْ كَيْفَ شِئْتَ فإنَّني بِكَ مُغْـرَمُ   رَاضٍ بما فَعَل الهَـوَى المُـتحكِمُ
ولئن كَتَمْتُ عن الوشاةِ صَـبَابَتِي   بـكَ فـالجوانحُ بـالهوى تـتكلَّمُ
أَشْتَاقُ مَنْ أهْوَى وأَعْجَـبُ أنَّنـي   أشتاق مَن هُو في الفُـؤادِ مُخَـيمُ
يَا مَنْ يَصدُّ عن المُحِـبِّ تَـدَللاً   وإذا بَكـى وَجْـداً غـدا يَتبَـسمُ
أسْكَنْتُكَ القَلْـبَ الـذي أحْرَقْتَـه   فحذارِ مـن نـارٍ بـه تتَـضَرّمُ

ويقرر الشاعر يوسف الرّندي([3]) أن الحب تمكن منه حتى استعـصى على الأطباء ، وقد أضاف البُعد والفراق علة إلى علة الحب ، يقول([4]) :

لَوْعَةُ الحُبِّ فِي فُؤَادِي تَعَاصَـتْ   أنْ تُدَاوَى ولَـوْ أتَـى ألْـفُ راق
كَيْفَ تَبْرى مِـنْ عِلَـةٍ وَعَلَيْهَـا   زَائِـدٌ عِلَـةُ النَّـوَى والفـراق

لقد تعلق الكثير من شعراء هذا العصر بما اشتهر من معاني العذريين وكما رأيناهم يشكون لوعة الفراق ، ويعانون مرض الحـب ، نـراهم أيـضاً يصورون أعراضه التي منها السقام والنحول وكثرة البكاء ، من ذلك قول ابن الوردي([5]):

([1]) هو فخر الدين أبو العباس إبراهيم الشيباني الإسعردي ثم المصري توفي سنة 693 هجرية ، وكان رئـيس الموقعين بالديار المصرية ، ثم الوزير بها ، ولي الوزارة مرتين ، وكان مشكور السيرة قليل الظلم كثيـر العدل والإحسان . النجوم الزاهرة 43/8

([2]) النجوم الزاهرة 43/8 .

([3]) هو يوسف الجذامي الرّندي ، ولي القضاء ببلده ، وله ديوان شعر ، وخمّس البـردة ، ولـه كتـاب أرج الأرجاء في مسرح الخوف والرجاء . الدرر الكامنة 296/4 .

([4]) الدرر الكامنة 296/4 .

([5]) ديوان ابن الوردي 293 .

نَحَلْتُ فَمَنْ يَعُـــدْنِي لَــمْ يَجِــدْنِي   وَلَـــيْسَ يَدُلُّـــهُ إِلاّ أَنِيْنِـــي

وكذاك قول شهاب الدين محمود([1]) :

رَأَتْنِي وَقَدْ نَــالَ مِنِّـي النُّحُـولُ   وَفَاضَتْ دُمُوْعِي عَلَى الخَدِّ فَيْضَا

فَقَالَـــتْ بِعَيْنِـــي هَــذَا الــسَّقَامُ   فَقُلْتُ صَدَقْتِ وَبِالخَـصْرِ أَيْـضَا

ومن طريف صور التعبير عن استسلام المحب لمحبوبتــه ، ورضــاه على ما يعانيه في حبه قول الشاعر محمد بن يوسف([2]):

هُمْ أَطْلَقُوا مَدْمَعِي والنَّارَ فِي كَبِدِي   كَذَا نَومِي وَصَبْرِي فِي الهَوَى مَنَعُوا

دَعْ يَفْعَلُوا مَا أَرَادُوا فِي عَبِيْـدِهِمُ   لاَ واخَذَ اللهُ أَحْبَابِي بِمَـا صَـنَعُوا

ويرفض الشاعر زكرياء بن يحيى الدّشناوي([3]) طلب الــذين يــسألونه السلوان ، لأن محاسن محبوبته قد شغفت قلبه ، مبيناً ما يعاني من هجرهــا ، يقول([4]) :

لاَ تَسَلْني عن الــسُّلُو وسَــلْ مــا   صَنَعْت بي لُطْفاً مَحَاسِنُ سَــلْمَى

أوْقَعَــت بــين مُقْلَتــي ورُقــادي   وسَقامي والجِسْمِ حرباً وسِــلْمَا

([1]) النجوم الزاهرة 191/9 .

([2]) هو قاضي القضاة كمال الدين محمد بن يوسف بن عبد الرحمن ، ولد في حلب سنة 874 هجرية ، تقلــب في بعض المناصب مثل قضاء حلب في زمن قانصوه الغوري ، ومكة وجدة زمن العثمانيين ، وقد تــرك مخالطة الناس وتصوف ، توفي سنة 956 هجرية . انظر ترجمته في : محمد بن إبراهيم الحنبلــي : در الحبب في تاريخ أعيان حلب ، تحقيق الفاخوري وعبارة ، منشورات وزارة الثقافــة ، دمــشق 1974م ، 337/3 .

([3]) هو زكرياء بن يحيى بن هارون بن يوسف الدشناوي مولداً ، التونسي الأصل ، المنعوت بالبــدر ، كــان فقيهاً أديباً توفي بالقاهرة سنة 703هجرية . انظر ترجمته في : أبو الفضل كمال الدين الإدفوي : الطــالع السعيد لأسماء نجباء الصعيد ، تحقيق سعد محمد حسن وطه الحاجري ، الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966م ، ص 248 .

([4]) الطالع السعيد 249 .

لقد اشتكى شعراء الغزل الحسي – منذ العصر الجاهلي – من طول الليل لأنه يفصلهم عن محبوباتهم ، ويتعجلون انقضاء الليل وما يلاقون فيه من آلام الحب وعذاباته ، أما شعراء الغزل العفيف في العصر المملوكي فرأينا منهم مَن يتعجل الليل ليتمتع برؤية طيف محبوبته ، ومنهم الشاعر ياقوت المستعصمي([1]) الذي يقول([2]) :

تجدّدِ الشَمْسُ شوقي كلّما طَلَعتْ   إلى مُحَيّاكَ يا سَمْعِي ويا بَصَري
وأسْهَرُ اللَيْل ذا أنسٍ بوحشتِهِ   إذ طيبُ ذِكْرَاك في ظَلْمَائِهِ سَمَري
وكُلّ يومٍ مَضَى لي لا أراكَ بِه   فَلَسْتُ محتسباً ماضيه من عُمُري
لَيْلي نهاري إذا ما دُرْتَ في خَلَدي   لأن ذِكْرك نور القَلْبِ والبَصَرِ

أما الشاعر محمد السلماني([3]) فقد افتتح إحدى قصائد مدحه بذكر زيارة طيف محبوبته ، وعتابه له على صدوده ، ودافع عن شوقه وعفته ، يقول([4]) :

زَارَتْ ونَجْمُ الدُجى يَشْكُو من الأرَقِ   والزّهر سَابحةٌ في لُجّةِ الأُفُقِ
والليل من رَوْعَةِ الإصْبَاح في دَهَشٍ   قَدْ شَابَ مَفْرَقُهُ من شِدة الفَرَقِ
وَأوْشَكَتْ أنْ تُضِلّ القَصْدَ زَائِرةٌ   لولا أتَتْني في باقٍ من الرمَقِ
قالَتْ تَنَاسَيْتَ عَهْدَ الحُبّ قُلْتُ لَهَا   لا والذي خَلَقَ الإنْسَان من عَلَقِ
مَا كَانَ قطّ تَنَاسِي العَهْدِ من شِيمِي   ولا السُلُوُ عن الأحْبَاب من خُلُقِي

([1]) هو جمال الدين أبو المجد ياقوت بن عبد الله المستعصمي الرومي ، عاش في كنف الخليفة المستعصم آخر خلفاء بني العباس في بغداد ، واشتهر بحسن خطه وجمال نظمه ونثره ، توفي سنة 698هجرية . انظر ترجمته في : النجوم الزاهرة 148/8 .

([2]) النجوم الزاهرة 149/8 .

([3]) السلوى الأندلسي ، عبد القادر بن عبد الرحمن : الكوكب الثابت في أخبار الشعراء وغيرهم من ذوي المناقب . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 325 تاريخ تيمور ص 339-340 .

([4]) هو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني اليمني ، قرطبي الأصل – كان من أهل العلم والأدب والطب ، ولد سنة 713 وتوفي سنة 776هجرية . راجع : السابق 339 .

ولا تَرَحلتُ عَن مَغْنَاكِ مِـن مَلَـلٍ		قَدْ يُتْرَكُ الماءُ يوماً خِيْفَـةَ الشَّرَقِ

أشْكُو إلى النّجْمِ وَهْنـاً مـا أُكابـدُهُ		حتى شَكَا النّجم من وجدي ومن قَلَقِي

يـا لائمـيّ أَفيقَـا مِـنْ مُلامِكُمَـا		فإنّني مذْ سـقيتُ الحـبّ لـم أُفـق

هَلْ تذكراني لَياليـنا وقـدْ نَفَحَـتْ		ريحُ الصَّبَا في رياضِ للصبا عَبِـق

وإذْ نُعِمْنَا بِرَغْمِ الـدّهْرِ مِنْـه وقـد		عَضّ الأنَامِلَ من غيظٍ ومن حَنَـق

بكـلّ سـاحِرَةِ الألبـاب آيَتُهـا		أن تَطْلُعَ الشمسُ في جنحٍ من الغَسَقِ

تُنازِعُ الغُـصْنَ لَـدْناً فـي تـأَوّدِه		وتَخْصِمُ الرّيم في الألحاظِ والعُنُـق

فالرّوضُ يَجْلو عذاراهُ وقد لَبِـستْ		عَقَائِلُ الوُرْقِ ديباجـاً مـن الـوَرق

وكما تحدث شعراء العصور السابقة عن خشيتهم من العذول والرقيب ، كذلك كثر حديث شعراء العصر المملوكي عنهما ، من ذلك عتاب عمر بن الوردي([1]) لعاذله بقوله([2]) :

ولِي حَالَةٌ فِي العَـشِقِيْنَ عَجِيْبَـةٌ		فُؤادِي ضِرَامٌ وَالـدموعُ سِـجَامُ

فَيَا عَاذِلِي مَا أَنْـتَ واللهِ عَـادِلٌ		أَأَحْفَـظُ عَهْـداً سَـابِقاً وَأُلامُ

فَلَوْ بِكَ مَا بِي كُنْتُ تَعْذُرُ عَـشِقاً		لَهُ البَيْنُ خَصْمٌ والغَـرِيْمُ غَـرامُ

وإذا كان ابن الوردي قد اتهم العذول بعدم العـدل فـإن العديـد مـن الشعراء قد حازوا تعاطف العذول ، من ذلك قول صفي الدين الحلي([3]) :

يَا مَنْ لِجَمَالِ يُوسُفٍ قَـدْ وَرِثَـا		العَاذِلُ قَـدْ رَقَّ لِحَـالِي وَرَثَـى

والنّاسُ تَقُولُ ، إذْ تَرَى حُسْنَكَ ذَا:		سُبْحَانَكَ مَا خَلَقْـتَ هَـذَا عَبَثَـا

([1]) هو زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس بن الوردي ، ولد في المعرة سـنة 689 هجرية ، وانتقل إلى حلب وفيها تلقى علومه ، نبغ في النحو والفقه والتاريخ ، وله العديـد مـن الكتـب والمنظومات العلمية إضافة إلى ديوان شعر ، توفي في حلب سنة 749 هجرية . راجع : شذرات الـذهب 161/6 – 162 . والدرر الكامنة 373/3 .

([2]) ديوان ابن الوردي 257 .

([3]) ديوان صفي الدين الحلي 464 .

وقد أبدى شعراء الغزل العفيف قدراً كبيراً من الحرص على سمعة محبوباتهم وعدم تعريضهن للشبهات ، وتحملوا صابرين ألم الفراق ، حتى إن سمحت المحبوبة بالرؤية ، وتحصنت بالرقباء منعاً للخلوة وحفاظاً على العفة ، من ذلك ما نراه في تبرير الشاعر جعفر بن محمد الفاوي([1]) لتخلفه عن لقاء محبوبته([2]):

لا تَلُمْنا إنْ رَقَصْنَا طَرَباً | لِنَسيمٍ مَرّ مِن ذَاكَ الخِبَا
طبّقَ الأرضَ بِنَشْرٍ عَاطِرٍ | فِيهِ للعشّاقِ سِرٌّ ونَبَا
يا أُهَيْلَ الحيّ مِنْ كاظِمَةٍ | قَدْ لَقِيْنَا مِن هَوَاكُم نَصَبَا
قُلْتُمُوا : جُزْ لِترانَا بالحِمَى | ومَلأْتُم حَيّكم بالرُّقَبَا
لَسْتُ أخْشَى المَوْتَ في حُبّكم | لَيْسَ قَتْلِي في هَوَاكُم عَجَبَا
إنّما أخْشَى عَلَى عِرْضِكُم | أو تَقُولَ النّاسُ قَوْلاً كَذِبا
اسْتَحلّوا دَمَهُ في حبّكم | فاجْعَلوا وَصْلِي لِقَتْلي سَبَبَا

إن الشاعر لا يخشى لقاء المحبوبة خوفاً على نفسه من الرقباء ، بل يخشى على سمعتها من افتراء الناس وكذبهم .

وقد اقترن الحفاظ على عفة المحبوبة وسمعتها بالغيرة ، من ذلك قول عليّ بن محمود اليشكري([3]) :

إنّي أَغَارُ من النّسيمِ إذَا سَرَى | بِأَرِيْجِ عَرْفِكَ خِيْفَةً مِن نَاشِقِ

([1]) هو جعفر بن محمد بن عبد الرحيم بن عمر الإدريسي الفاوي ، ولد بالقاهرة سنة 611 وفيها تلقى علومه ثم انبرى لنشر العلم وإلقاء المحاضرات ، توفي سنة 696 هجرية . راجع ترجمته في : الطالع السعيد 179 - 181 .

([2]) الطالع السعيد 180 181 .

([3]) هو الشيخ علاء الدين أبو الحسن عليّ بن محمود بن الحسن بن نبهان اليشكري ، عالم من علماء الفلك والتقاويم ، له باع طويلة في علم الأدب وقرض الشعر . توفي سنة 680 هجرية . راجع ترجمته في : النجوم الزاهرة 296/7 297 .

وَأَوَدُّ لَوْ سُهِّرْتُ لا مِنْ عِلَّةٍ   حَذَراً عَلَيْكَ مِنَ الخَيالِ الطَّارِقِ

ومن طريف معاني الغيرة أيضاً ما نراه من غيرة صفي الدين الحليّ على محبوبته من نفسه كما يقول(1) :

تَعَرَّضَ بِيْ ، فَقُلْتُ : إِلَيْكَ عَنِّي ،   كَفَانِي فِيْكَ عَيْشِي بِالتَّمَنِّي

أَخَافُ مِنَ اللَّحاظِ عَلَيْكَ ، حتى   أَغَارُ عَلَيْكَ . حِيْنَ أَرَاكَ . مِنِّي

أَلَمْ تَرَنِي . إِذَا أَرْسَلْتُ طَيْفاً ،   وَزَادَ عَلَيْكَ خَوْفِي بَعْدَ أَمْنِي

أُقَبِّلُ تُرْبَ مَسْعَاهُ بِطَرْفِي ،   وَأَمْحُو إِثْرَ وَطْأَتِهِ بِجَفْنِي

وكذلك قوله(2) :

يَغَارُ عَلَيْكَ قَلْبِي مِنْ عِيَانِي ،   فَأُخْفِي مَا أُكَابِدُ مِنْ هَوَاكَا

مَخَافَةَ أَنْ أُشَاوِرَ فِيْكَ قَلْبِي ،   فَيَعْلَمَ أَنَّ طَرْفِي قَدْ رَآكَا

لقد اجتهد الشعراء في تجديد معاني شعرهم ، وانشغلوا بتصيد كل معنى طريف ، من ذلك أيضاً غبطة بعض الشعراء للسواك في فم الحبيب ، كما في قول ابن دمرداش(3) :

أَقُولُ لِمِسْوَاكِ الحَبِيْبِ لَكَ الهَنَا   بِرَشْفِ فَمٍ مَا نَالَهُ ثَغْرُ عَاشِقِ

فَقَالَ وَفِي أَحْشَائِهِ حُرْقَةُ الجَوَى   مَقَالَةَ صَبٍّ لِلدِّيَارِ مُفَارِقِ

تَذَكَّرْتُ أَوْطَانِي فَقَلْبِي كَمَا تَرَى   أُعَلِّلُهُ بَيْنَ العُذَيْبِ وَبَارِقِ

---

(1) ديوان صفي الدين الحليّ 436 .

(2) السابق 438 .

(3) هو محمد بن محمد بن محمود ، أبو عبد الله ، شهاب الدين ، المعروف بابن تمرداش ، و(دمرداش ودمرتاش) ، ولد بدمشق سنة 638 وتوفي فيها سنة 723 هجرية . للاستزادة انظر ترجمته وشعره في : فوات الوفيات 276/3 – 283 . ومسالك الأبصار 297/16 – 302 .

ولقد دَأَبَ الشعراء على الشِكَاية من صدود المحبوب وهجرانه أو قطيعته ، ومن عبث المحبوبات بهم أحياناً ، كما نرى في قول أحمد ابن عشائر السّلمي([1]) :

شَكَوْتُ إليه أنّ هَجْرَكَ قَاتِلي وقُلْتُ لَه مَنْ ذَا يَكونُ بَديلي
فَقَامَ وولّى وهو يُنْشِد ضاحكاً ألا فاعْجَبوا من ميتٍ وفُضولي

ومع ذلك فشعراء العفة يتمتعون بالصبر والوفاء للحبيب أيّا كان حكمه ، ذلك ما نراه في قول الشاعر عبد الغفار القوصي([2]) واصفاً ما يكابده من ألم الفراق ، وإخلاصه للمحبوبة في حلها وترحالها([3]) :

بَقَاءُ نَفْسِي في يَوْمِ النّوى عَجَبُ لأنّ موتي مِنْ بَعْضِ الذي يَجِبُ
وما بَقيتُ وروحي لَسْتُ أمْلِكُها ولَيْسَ لي من حَياتي بَعْدَهم أرَبُ
وَرِضاءُ قَلْبي أن يَرْضَوا بِسَفْكِ دَمي همُ همُ إن رَضُوا في الحبّ أو غضبوا
والقُربُ والبُعْدُ ما شاءوا فَدَيْتُهُم هُمُ الأحِبّةُ إنْ شَطّوا وإن قَرُبُوا
وهُم نهايةُ آمالي ومُرْتَجَعي إلَيهم آل قَصْدِي وانْتَهى الطَلَبُ
كَرّر حَدِيثَهم يا سَعْدُ في أُذُني فَلَسْتُ أنْسَى ولكن هزّني الطَرَبُ

لقد توقف العديد من شعراء الغزل عند ساعة الفراق مليًّا ، وعبروا عن مشاعرهم تجاه رحيل المحبوبة ، ووصفوا ما يكابدونه من ألم الفراق ، من ذلك قول أبي جعفر أحمد بن يوسف([4]) :

([1]) هو أحمد بن الحافظ الخطيب ناصر الدين أبي المعالي محمد بن عشائر السلمي ، باشر الخطابة بجامع حلب الكبير إلى أن توفي بالطاعون وهو في سن الشباب سنة 790 هجرية . الدرر الكامنة 168/1 .

([2]) هو عبد الغفار بن أحمد بن نوح القوصي ، من علماء قوص المعروفين بتقواهم وغيرتهم على الدين ، له مواقف معروفة من النصارى وكنائسهم ، وينسب أصحابه إليه كرامات ، من مصنفاته كتاب "الوحيد في التوحيد" ، توفي بمصر سنة 708 هجرية . الطالع السعيد 323 - 327 .

([3]) الطالع السعيد 325 .

([4]) الحركة الشعرية زمن المماليك 302 .

مَحَاجِرُ دَمْعِي قَدْ مَحَاهنَّ مَا جرَى مِن الدَّمْعِ لَمَّا قِيلَ قَدْ رَحَلَ الركْـبُ
تَنَاقَصَ حَالِي مُذْ شَجَانِي فِـرَاقُهُم فَمِنْ أَضْلُعِي نَارٌ وَمِنْ أَدْمُعِي سَكْبُ

وهكذا فقد ذهب شعراء العصر المملوكي في كل مذهب بحثاً عن طريف المعاني ، كما بثوا حياة جديدة في الكثير من المعاني التقليدية كما رأينا في الشواهد التي سمح المقام بذكرها .

وقد استمر تدفق شعر الغزل العفيف **في العصر العثماني** بغـزارة تُماهي اتساع رقعة الدولة الإسلامية وكثرة عدد شعرائها ، ولا نكاد نجـد شاعراً لم يخض في بحر الغزل ، ولعلني لا أتجاوز الحقيقة إن قلـت إن حجم ما خلفه هذا العصر من شعر الغزل يفوق حجم أي فن مـن فنـون الشعر الأخرى .

ولم تختلف معاني الغزل العفيف في الشعر العربي عامة ، فهـي جميعاً تدور حول فراق الأحبة ، والتعبير عن أثار هذا الفراق على نفس الشاعر سواء بالوقوف على أطلال المحبوبة وتذكر ما نقضى من أيـام ، أو التعبير عن شدة الشوق لرؤية المحبوبة ووصف ما يعانيـه مـن آلام الجوى والبعاد ، والتأسي على ما فات من ذكريات ، وتمنى رؤية الأحبة ولمّ الشمل ، وفي خلال ذلك قد يشير الشاعر إلى بعض صفات المحبوبة المعنوية ، وما تسمح به العفة من صـفات جمالهـا ، ويـذكر الرقيـب والواشي ، وغير ذلك من المعاني الجزئية التي تنوعـت طـرق تعبيـر الشعراء عنها .. ، وقد اختلفت طرق تعبير الشعراء عن هـذه المعـاني باختلاف عصورهم ، وبيئاتهم ، وملكاتهم الشعرية ، وتجاربهم الفنية ..

وقف الشعراء على الأطلال مثلما وقف سابقوهم ، ورأى بعضهم ذلك ضرورة في مقدمة قصيدة المدح ، كما هو الحال عند ابن معتوق([1]) الذي خصص معظم شعره للمدح ، وافتتح الكثير منها بالوقوف على أطلال المحبوبة ، من ذلك قوله ([2]) :

هَذَا الحِمَى فَانْزِلْ عَلَى جَرْعَائِهِ وَاحْذَرْ ظُبَا لَفَتَاتِ عِيْنِ ظِبَائِهِ([3])
وَانْشُدْ بِهِ قَلْباً أَضَاعَتْهُ النَّوَى مِنْ أَضْلُعِي فَعَسَاهُ فِي وَعْسَائِهِ([4])
وَسَلِ الأَرَاكَ الغَضَّ عَنْ رُوْحٍ شَكَتْ حَرَّ الجَوَى فَلَجَتْ إِلَى أَفْيَائِهِ
وَاقْصِدْ لُبَانَاتِ الهَوَى فَلَعَلَّنَا نَقْضِي لُبَانَاتِ الفُؤَادِ التَّائِهِ
وَاضْمُمْ إِلَيْكَ خُدُودَ أَغْصَانِ النَّقَا وَالْثِمْ ثُغُوْرَ الدُّرِ مِنْ حَصْبَائِهِ
وَاسْفَحْ بِذَاكَ السَّفْحِ حَوْلَ غَدِيْرِهِ دَمْعاً يُعَسْجِدُ ذَوْبَ فِضَّةِ مَائِهِ([5])

كذلك عبَّر بعض شعراء العصر العثماني عن ضجرهم من كثرة الوقوف على الطلل والبكاء على سكانه الظاعنين عنه ، وانتقدوا أنفسهم كيف يشكون لربع قفر لا يحس بمعاناتهم ، من ذلك قول أحمد العطار([6]) في التمرد على الوقوف على الطلل ، وتبرير وقوفه وبكائه جرّاء ما يكابده من فراق المحبوبة([7]) :

([1]) هو شهاب الدين الموسوي ، الشهير بابن معتوق ، توفي سنة 1087 للهجرة . راجع مقدمة الديوان .

([2]) ديوان ابن معتوق ، المطبعة الأدبية ، بيروت 1885م ، ص 62 .

([3]) الجرعاء : رمل لا ينبت شيئاً ، فكأنه يتجرع البذر .

([4]) الوعساء : الأرض اليابسة .

([5]) العسجد : الذهب .

([6]) هو أحمد بن عبد الله بن بهاء الدين بن محفوظ بن رجب العطار ، الدمشقي ، المعروف بابن جذى . توفي سنة 1126 هجرية . راجع ترجمته في : نفحة الريحانة 504/1 .

([7]) نفحة الريحانة 506/1 - 507 .

أَفِي كُلِّ يَـوْمٍ بِـالنَّوَى تَتَـرَوَّعُ ... وَمِنْ حَادِثَاتِ الدَّهْرِ يُشْجِيكَ مَوْقِـعُ
وَتَسْقِي بِرَسْمٍ قَدْ تَرَسَّـمَهُ البِلَـى ... وَتَسْقِي ثَرَاهُ كُلُّ نَكْبَاءَ زَعْـزَعُ([1])
وَتَنْدُبُ أَطْلالاً تَعَفَّـتْ رُسُـومُهَا ... وَتَشْكُو لِرَبْعٍ أَعْجَـمٍ لَـيْسَ يَـسْمَعُ
وَتُسْبِلُ تَهْتَـانَ المَـدَامِعِ هَـاطِلاً ... عَلَى قَفْرَةٍ مِنْ دِيْمَـةٍ لَـيْسَ تُقْلِـعُ
وَتُصْبِحُ هَيماً بَيْنَ قَفْـرٍ تَجُوْسُـهُ ... وَتُمْـسِي وَلْهانـاً وَأَنْـتَ مُـرَوَّعُ
وَتَرْمِي بِطَرْفَيْكَ الهِضَابَ عَـشِيَّةً ... أَفِيْ كُلِّ هَـضْبٍ لِلأَحِبَـةِ مَطْلَـعُ
وَقَائِلَةٍ فِيْمَا الوُقُـوْفُ وَقَـدْ خَـلاَ ... مِنَ القَوْمِ مُصْطَافٌ يَرُوقُ وَمَرْبَـعُ
فَقُلْتُ لَهَا أُذْرِي الـدُّمُوعَ وَهَكَـذَا ... أَخُو الشَوْقِ مِنْ فَرْطِ الصَّبَابَةِ يَصْنَعُ
وَمَا كُنْتُ أَدْرِي قَبْلُ وَشْكِ رَحِيْلِهِمْ ... بِأَنِّي إِذَا بَانُوا عَنِ الجِـزْعِ أَجْـزَعُ
وَلاَ أَنَّ أَنْفَاسِي يُصَعِّدُهَا الجَـوَى ... إِذَا لاحَ بَرْقٌ فِـي الدُّجُنَّـةِ يَلْمَـعُ
فَرُحْتُ وَدَمْعُ العَيْنِ تَجْرِي غُرُوْبُهُ ... عَلَى الخَدِّ مِنِّي والحَمَـائِمُ تَـسْجَعُ
تَنُوْحُ بِشَطِّ الوَادِيَيْنِ وَلِـيْ حَـشاً ... إِذَا مَا انْبَـرَى تَرْنَامُهَـا يَتَـصَدَّعُ
فَلاَ كَبِدِي تَهْدَا وَلا الشَوْقُ مُقْصِرٌ ... وَلا لَوْعَتِي تَخْبُو وَلا العَيْنُ تَهْجَـعُ
وَقَدْ رَحَلُوا عَنْ أَيْمُنِ الجِزْعِ غُدْوَةً ... فَلَمْ يَبْقَ فِي قُرْبِ التَّزَاوُرِ مَطْمَـعُ

وإذا كان الشاعر أحمد العطار يتردد على ديار المحبوبة ، ويبكي بُعدها وفراقها ، وهو يعلم أنه لا جدوى من الوقوف على طلل أصم ، ولا فائدة من النحيب والبكاء عنده ، ويبرر ما يفعله بشدة الشوق الذي لا تخبو ناره ، واليأس الذي لا أمل معه في رؤية المحبوبة ثانية ، فإن عبد الحق الشامي([2]) يقف على أطلال المحبوبة ليصبر النفس على بعدها وفراقها ،

([1]) ريح زعزع : ريح شديدة .

([2]) هو عبد الحق بن محمد بن محمد الحمصي الدمشقي الحجازي ، ولد سنة 962 هجرية ، اشتغل في التدريس في مدارس دمشق ، كان أديباً متمكناً من فنون كثيرة ، توفي سنة 1020 هجرية . راجع ترجمته في : خلاصة الأثر 310/2 .

وهو يعلم أن قلبه لن يفيق من سكرة الحب ، كما أنه لن يعود من غيبة شوقه([1]) :

كَأَنَّ الرُّسومَ الدَّارِسَاتِ تَـصَبُّرِي   عَشِيَّةَ حُفَّتْ بِـالقَطِيْنِ الرَّكَائِـبُ
فَوَا أَسَفاً لا القَلْبُ مِنْ سَكْرَةِ الهَوَى   يُفِيْقُ وَلاَ مِن غَيْبَةِ الـشَّوْقِ آيِـبُ

أما منزل محبوبة الشاعر حسن البوريني([2]) ففي قلبه ، ومع ذلك نراه يشتاق إليها ، ويعاني تباريح الهوى ، ويسأل منزلها الخالي أين رحلت ، ثم يخبره أنها تسكن قلبه مهما بعدت ، ويـراوح بين اتهامها بالغدر ، والتماس العذر لها ، وتبرير صدودها بخشية الوشاة وافتضاح حبهما ، ويعلن أنه سيبقى وفياً حافظاً للوداد ، يقول([3]) :

لَهَا فِيْ رُبَى قَلْبِ المُحِـبِّ مَقِيْـلُ   وَظِـلٌّ بِأَنْحَـاءِ الـضُّلُوعِ ظَلِيْـلُ
وَإِنْ ظَمِئَتْ فَالوِرْدُ مِن مَاءِ دَمْعِـهِ   يُبَـلُّ بِـهِ عِنْـدَ الهَجِيْـرِ غَلِيْـلُ

....

مَنَازِلُ هَذَا القَلْـبُ كُـنَّ أَوَاهِـلاً   وَهَا هِيَ مِنْ بَعْدِ الفِـرَاقِ طُلُـوْلُ
لَكَ اللهُ يَا ابْنَ الأَكْرَمِيْنَ أَيَـشْتَفِي   فُـؤَادٌ لِبَـيْنِ الظَّـاعِنِيْنَ عَلِيْـلُ
وَيَا ظَبْيُ هَلْ بَعْدَ النِّفَـارِ تَـأَنُسٌ   وَيَا بَدْرُ هَلْ بَعْـدَ الأُفُـولِ قُفُـوْلُ
وَيَا مَنْزِلَ الأَحْبَابِ أَيْـنَ تَرَحَّلُـوا   وَهُمْ فِيْ فُؤَادِي مَا حَيِيْـتُ نُـزُولُ
يَمِيْلُـونَ عَنِّـي لِلْوُشَـاةِ وإِنَّنِـي   إِلَيْهِم وَإِنْ طَـالَ الـصُّدُودُ أَمِيْـلُ

([1]) ريحان الألبا 263/1 .

([2]) هو حسن بن محمد بن حسن ، بدر الدين البوريني ، ولد بقرية صفورية سنة 963 هجرية ، وهاجر مع أبيه إلى دمشق ، ثم ارتحل معه إلي بيت المقدس ، واشتغل بالتدريس والوعظ بمدارس الشام ومساجدها ، وقد جمع ديواناً من شعره ، توفي بدمشق سنة 1024 هجرية . انظر ترجمته في : ريحانة الألبا 42/1 – 53 .

([3]) ريحانة الألبا 48/1 – 49 .

أَيَجْمُلُ مِنْ أَحْبَابِ قَلْبِي غَدْرُهُم بِغَدْرِي وَمَا غَدْرُ المُحِبِّ جَمِيْلُ
عَلَيَّ حِفْظُ الوِدَادِ وإِنْ جَنَوْا وَلَيْسَ إِلَى نَقْضِ العُهُودِ سَبِيْلُ

ومن بديع معاني الوقوف على الطلل ما يقرره الشاعر أحمد بن شاهين[1] من تصابيه وقد شاب شعر رأسه وضعف بصره ، يقول[2] :

نَصَلَ الشَّبَابُ وَمَا نَصَلْتُ مِنَ الْهَوَى وَبَدَا المَشِيْبُ وَفِيَّ فَضْلُ تَصَابِي
وَغَدَوْتُ أَعْتَرِضُ الدِّيَارَ مُسَلِماً يَوْماً فَلَمْ تَسْمَحْ بِرَدِ جَوَابِي
فَكَأَنَّهَا وكَأَنَّنِي فِيْ رَسْمِهَا أَعْشَى يُحَدِّقُ فِيْ سُطُوْرِ كِتَابِ

وقد اعتاد شعراء الغزل العفيف على مناداة حادي العيس ، وطلبوا منه التعريج على ديار الأحبة ، أو التمهل لكي يتمكنوا من توديع محبوباتهم ، وبثوه أحياناً ما يعانونه من ألم ساعة الفراق ، وفي هذا المعنى قال محمد الكَنْجِيّ[3] منادياً حادي العيس ، ومتودداً إليه لكي يبطئ السير لعلّه يدرك المطايا التي تحمل محبوبته[4] :

حَادِيَ العِيْسِ لا عَدِمْتُكَ حَادِي بِي تَرَفَّقْ فَفِي الظُّعُوْنِ فُؤَادِي
وَاتْرُكِ الْعِيْسَ سَائِرِيْنَ رُوَيْداً وَتَهَادَ بِهِنَّ كُلَّ التَّهَادِي

---

(1) هو أحمد بن شاهين القبرسي الأصل الدمشقي المولد ، أصل والده من جزيرة قبرس ، اشتراه أحد الأمراء وتبناه وعلّمه وجعله من أجناد دمشق ، ثم بدأ يتدرج حتى أصبح من أعيان دمشق ، تفرغ للدراسة والعلم، حتى برز في الكثير من علوم الفقه والعربية ، ناب في قضاء دمشق ، توفي سنة 1053 هجرية . راجع ترجمته في : خلاصة الأثر 210/1 – 217 .

(2) خلاصة الأثر 216/1 .

(3) هو محمد بن أحمد بن محمود بن محمد الكنجي الدمشقي ، تقلب والده في المناصب القضائية ، وأصله من مدينة كنجة الواقعة بين خوزستان وأصبهان . توفي والده سنة 1107 هجرية . أما ولده محمد – شاعرنا – فلم نقف على تاريخ وفاته . راجع ترجمته وترجمة والده في : ريحانة الألبا 49/6 – 74 .

(4) محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين المحبي : ذيل نفحة الريحانة ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة 1971م ، ص 55 – 56 .

عَلَّنِي أُدْرِكُ المَطِيَّ فَأَشْفِي مَا بِأَحْشَايَ مِنْ أَلِيْمِ بِعَادِي
فَفُؤادِي يَسِيْرُ خَلْفَ المَطَايَا وَدمُوْعِي تَسِيْلُ سَيْلَ الوَادِي
يَا رَعَى اللهُ جِيْرَةً فِي حِمَاهَا كَانَ لِي بَيْنَهُم عهُوْدُ وِدَادِ

ثم يحدثنا الكنجي عن حاله قبل أن يراها ، وكيف أضحى صريع هواها ، فيقول([1]) :

كُنْتُ خِلْواً مِنَ الْغَرَامِ وَوَجْدِي فِي انْتِقَاصٍ وَصِحَّتِي فِي ازْدِيَادِ
نَظَرَتْ مُقْلَتِي إِلَيْهِ فَأَوْرَتْ مَا أُقَاسِي مِنْ لَوْعَةٍ واتِّقَادِ
يَا لَهَا نَظْرَةً أَثَارَتْ بِقَلْبِي مِنْ دَوَاعِي الغَرَامِ قَدْحَ الزِّنَادِ
كَيْفَ أَسْلُوْهُ أَوْ يَرُوْقُ لِعَيْنِي غَيْرُ مَرْآهُ وَهُوَ مِلْءُ فُؤادِي

إنه الحب من النظرة الأولى كحال العذريين في حبهم ، وهو الوفاء الذي يجعل الشاعر لا يرى سواها مهما كابد من عذاب البعد والفراق .

لقد تحدث شعراء الغزل العفيف عن معاناتهم كثيراً كما فعل شعراء الغزل العفيف في كل العصور ، واجتهد بعضهم في تصيّد لطيف المعاني ، وتوليد بديع الصور ، من ذلك قول محمد الفاسيّ([2]) في وصف تباريح الهوى وعذابه([3]) :

أَتُسِيْلُ دَمْعِي ثُمَّ تَسْأَلُ مَا جَرَى عَجَبَاً لَعَمْرِكَ مَا رَأَيْتُ وَمَا أَرَى
هَذِي دِمَا نَفْسٍ هَوَاكَ أَذَابَهَا فَهَمَتْ عَلَى خَدِّي نَجِيْعَاً أَحْمَرَا

([1]) ذيل نفحة الريحانة 56/6 .

([2]) هو محمد بن إبراهيم ، بديع الزمان الفاسي . جمع بين رقة الحضارة ودقة البداوة ، رحل من المغرب إلى المشرق ، وجال في البلاد ، ودخل قسطنطينية ، واجتمع بعلمائها ، وانتهى به المطاف إلى مصر ، وبها توفي سنة 106 هجرية . انظر ترجمته في : ريحانة الألبا 333/1 – 350 .

([3]) ريحانة الألبا 336/1 .

وكما كانت الشكوى من الرقيب والعذول والحاسد من خصوصيات الحب العفيف عبر العصور ، كذلك كان حال شعراء الحب العفيف في هذا العصر ، فالشاعر حسن البوريني – مثلاً – يرينا مدى الخشية من الرقيب ، وكيف تحرص حبيبته على إخفاء حبها عن أعين الناس ، وتكتفي بلغة العيون ، يقول([1]) :

حَبِيْبِي حَبِيْبٌ يَكْتُمُ النَّاسَ حُبَّهُ ... لَنَا حِيْنَ تَلْقَانَا العيُونُ قُلُوبُ
يُبَاعِدُنِي فِي المُلْتَقَى وَفُؤَادُهُ ... وَإِنْ هُوَ أَبْدَى لِي البِعَادَ قَرِيْبُ
وَيُعْرِضُ عَنِّي والهَوَى مِنه مُقْبِلٌ ... إذَا خَافَ عَيْنًا أَوْ أَشَارَ رَقِيْبُ
فَتَنْطِقُ مِنَّا أَعْيُنٌ حِيْنَ نَلْتَقِي ... وَتَخْرَسُ مِنَّا أَلْسُنٌ وقُلُوبُ

وهكذا تتنوع معاني شكوى شعراء الغزل العفيف من لوعة الحب، ووجد الفراق ، وقسوة الرقيب ، وإعراض المحبوب وصدوده .. وتتباين اتجاهات الشعراء في التعبير عن هذه المعاني ، فالشاعر عبد الحيّ بن أبي بكر([2]) ، يتخذ اتجاهاً أخر يختص بفلسفة الحب العفيف عامة من خلال تجربته الخاصة فيقول([3]) :

خَلِّيَانِي وَلَوْعَتِي وَنَحِيْبِي ... لَيْسَ إلا صَبَابِ بِدَمْعٍ صَبِيْبِ
وابْكِيَانِي فَإِنَّ مَنْ جَرَحَ اللَّحْـ ... ـظُ قَتِيْلٌ وَمَا لَهُ مِنْ طَبِيْبِ
أَيُّ صَبٍّ سَمِعْتُمَا عَلِقَتْهُ ... أَعْيُنُ الغِيْدِ فَهْوَ غَيْرُ سَلِيْبِ

([1]) ريحانة الألبا 45/1 .

([2]) هو عبد الحيّ بن أبي بكر ، البعليّ الأصل ، الدمشقي المولد ، اشتهر بطرز الريحن لقوله في أيام صبوته: "طرز الريحان حلة الورد" ، انتهى به الأمر درويشاً يسيح في البلاد ، تنقل في بلاد الروم ، ومصر ، وحلب ، ثم استقر بدمشق .. توفي سنة 1069 هجرية . راجع ترجمته : نفحة الريحانة 254/1 – 292 .

([3]) نفحة الريحانة 256/1 .

ويرى أيضاً أن لذة الحب تكمن فيما يلقاه المحب من عذاب ، لذلك يتمنى لو أقرّته على حبه لها لكي يحوز تلك اللذة ، يقول[1] :

ذُو وَقَارٍ أَهَابُهُ أَنْ أُحَيِّـ ـيْهِ إِذَا مَا بَدَا بِلَفْظِ حَبِيْبِي
فَهْوَ لَمْ أَدْرِ جَاهِلٌ خُبْرَ حَالِي أَمْ يُرِيْنِي تَجَاهُلاً كَمُرِيْبِ
لَيْتَهُ لَوْ أَقَرَّ قَلْبِي عَلَى الحُبِّ بِلاَ رِيْبَةٍ وَوَجْهِهِ قَطُوْبِ
وإِذَا شَاءَ بَعْدَ ذَاكَ تَجَنِّى لَذَّةُ الحُبِّ غُصَّةُ التَّعْذِيْبِ

ولا يختلف رأي ابن النحاس الحلبي كثيراً عن رأي حسن البوريني في الصدود والعتاب وبُعد دار الحبيبي[2] :

أَلَذُّ الهَوَى مَا طَالَ فِيْهِ التَجَنُّبُ وَأَحْلاَهُ مَا فِيْهِ الأَحِبَّةُ تَعْتَبُ
وَمَا بُعْدُ دَارٍ مِنْ حَبِيْبٍ مُذَمَّماً إِذَا لَمْ يَجِدْ فِيْهِ مُنَاهُ المؤَنّبُ
قَضَى الحَظُّ إِلاّ أَنْ أَكُوْنَ مُبَعَّداً وَأَلْقَى الذِّي لاقَى المُحبُّ المُعَذَّبُ

ومثل ذلك قول الأمير منجك أيضاً[3] :

قَمَرٌ إِذَا فَكَّرْتُ فِيْهِ تَعَتَّبَا وَإِذَا رَآنِي فِي المَنَامِ تَحَجَّبَا
صَادَفْتُه فَتَنَاوَلَتْ لَحَظَاتُهُ عَقْلِي وَأَعْرَضَ نَافِراً مُتَحَجِّبَا
أَنَا مِنْهُ رَاضٍ بِالصُّدُوْدِ لأَنَّنِي أَجِدُ الهَوَانَ لَدَى الهَوَى مُسْتَعْذَبَا

أما مرعي الكرمي[4] فيختلف رأيه عن سابقيه ، فهو يتمنى أن يحظى بيوم يكون فيه خالي القلب من الهوى والغرام ، لكي يستريح من تباريح الحب ، وآلام الصدود والهجران ، يقول[1] :

---

(1) السابق 256/1 .

(2) عمر موسى باشا : تاريخ الأدب العربي – العصر العثماني 122 .

(3) ريحانة الألبا 235/1 .

(4) هو مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد بن أبي بكر بن يوسف بن أحمد الكرمي ، نسبة لطور كرم قرية بقرب نابلس ، انتقل للإقامة في مصر ، وأصبح أحد أكابر علماء الحنابلة فيها ، كان إماماً محدثاً

لَيْتَ فِي الدَّهْرِ لَوْ حَظِيْتُ بِيَوْمٍ فِيْهِ أَخْلُو مِنَ الْهَوَى وَالغَرَامِ
خَـ يَ القَلْبِ مِنْ تَبَارِيْحِ الهَوَى وَصُدُودٍ وَحُرْقَةٍ وَهَيَامِ
كَيْ يُرَاحُ الفُؤادُ مِنْ طُولِ شَوْقٍ قَدْ سَقَاهُ الهَوَى بِكَأْسِ الحُمَامِ

إلى غير ذلك من شعر الصبابة والهوى الذي استغرق معاني الحب العفيف وموضوعاته ، الذي تعج به دواوين شعراء العصر العثماني وكتب الفقهاء والقضاة والأدباء ورسائلهم .

2- الغزل الحسي أو الصريح :

وهو ذلك اللون من الغزل الذي يتناول الأوصاف الحسية للمرأة ، فيتغنى بمفاتنها المختلفة ومكامن الجمال فيها . وهو ينقسم إلى نوعين : حسّي غير فاحش ، وحسّي فاحش .

ولأننا لا نسعى للوقوف على الغزل الحسّي الفاحش الذي تأنف منه العفة ويأباه الحياء ، لذلك سينصب درسنا على الغزل الحسّي غير الفاحش ، وسنحاول التعرف على معانيه وصوره ، وتناول مظاهر التقليد والتجديد فيها ، واستجلاء ما استحدثه شعراء هذا العصر من المعاني والصور التي لم تكن مألوفة في العصور السابقة .

وكما هو معروف فقد جاء هذا الغزل في صدور قصائد المدح كما استقل بقصائد كاملة ، ومن نماذج النوع الأول نورد ما جاء في صدر

فقيهاً واسع الإطلاع في مختلف العلوم ، صنف عشرات الكتب والرسائل العلمية ، منها : دليل الطالب في الفقه ، ودليل الطالبين لكلام النحويين ، ومقدمة الخائض في علم الفرائض ، وله ديوان شعر .. توفي بمصر سنة 1033 هجرية . راجع ترجمته في : خلاصة الأثر 358/4 - 361 .

(1) خلاصة الأثر 361/4 .

معارضة صفي الدين الحلّي لقصيدة المتنبي في مدح عليّ بن منصور الحاجب التي مطلعها([1]) :

بِأَبِي الشُّموسُ الجَانِحَاتُ غوَارِبَا اللابِسَاتُ مِنَ الحَرِيرِ جَلابِبَا

قال صفي الدين الحلّي([2]) :

أَسْبَلْنَ مِنْ فَوْقِ النّهودِ ذَوَائِبا ، فَجعَلْنَ حبَّاتِ القُلُوبِ ذَوَائِبَا
وَجَلَوْنَ مِنْ صُبْحِ الوُجُوهِ أَشِعَّةً ، غادَرْنَ فَوْدَ اللَّيلِ مِنْهَا شَائِبَا
بِيْضٌ دَعَاهُنَّ الغَبِيُّ كَوَاعِبا ، ولَو اسْتَبَانَ الرُّشْدَ قَالَ كَوَاكِبَا
وَرَبَائِبٌ ، فَإِذَا رَأَيْتَ نِفَارَهَا مِنْ بَسْطِ أُنْسِكَ خِلْتُهُنَّ رَبَارِبَا([3])
سَفَهاً رَأَيْنَ المَانَوِيَّةَ عِنْدَمَا أَسْبَلْنَ مِنْ ظُلَمِ الشُّعُوْرِ غَيَاهِبَا([4])
وَسَفَرْنَ لِي فَرَأَيْنَ شَخْصاً حَاضِراً شُدِهَتْ بَصِيْرَتُهُ ، وقَلْباً غَائِبَا([5])
أَشْرَقْنَ فِيْ حُلَلٍ كَأَنَّ وَمِيْضَها شَفَقٌ تَدَرَّعَهُ الشُّمُوْسُ جَلابِبَا
وَغَرَبْنَ فِيْ كِلَلٍ ، فَقُلْتُ لِصَاحِبِي: بِأَبِي الشُّمُوسَ الجَانِحَاتِ غَوْارِبَا
وَمُعَرْبِدِ اللَّحَظَاتِ يَثْنِي عِطْفَهُ ، فَيُخَالُ مِنْ مَرَحِ الشَّبِيْبَةِ شَارِبَا
حُلْوِ التَّعَتُّبِ وَالدَّلالِ يَرُوْعُهُ عَتَبِي ، وَلَسْتُ أَرَاهُ إِلاّ عَاتِبَا
عَاتَبْتُهُ ، فَتَضَرَّجَتْ وَجنَاتُهُ ، وازْوَرَّ أَلْحَاظاً وَقَطَّبَ حَاجِبَا
فَأَذَابَنِي الخَدُّ الكَلِيْمُ وطَرفُهُ ذُو النُّون ، إِذْ ذَهَبَ الغَدَاةَ مُغَاضِبَا

([1]) ديوان المتنبي ، تحقيق عبد المنعم خفاجي وسعيد السحار وعبد العزيز شرف ، دار مصر للطباعة 1994م، ص 55 .

([2]) ديوان صفي الدين الحلّي 95 – 96 .

([3]) الربائب ، الواحدة ربيبة : بنت الزوجة ، امرأة الرجل إذا كان له ولد من غيرها . الربارب ، الواحد ربرب : القطيع من البقر الوحشي .

([4]) السفه : الجهل . المانوية : دين فارسي قديم ، يعتقد بالهين ، إله الظلمة وإله النور . الغياهب : الظلمات ، الواحد غيهب .

([5]) شدهت : دهشت .

ذُو مَنْظَرٍ تَغْدُو القُلُوبُ لِحُسْنِهِ نَهْباً ، وَإِن مَنَحَ العُيُونَ مَوَاهِبَا
لاَ بِدْعَ إِنْ وَهَبَ النَّوَاظِرَ حُظْوَةً مِنْ نُوْرِهِ ، وَدَعَاهُ قَلْبِي نَاهِبَا

سار الحلّي في فلك الذوق العربي الموروث ، الذي يتمثّل جمال المرأة في بياض بشرتها ، وطول شعرها الأسود القاتم ، وسعة عينيها اللتان تشبهان عيني البقرة الوحشية ، ودلها في مشيتها وتثني عطفها مَرحاً حتى يظن مَن يراها أنها ثملة من شرب الخمر ..

وقد درج شعراء الغزل الحسِّي على تشبيه جمال المرأة المحبوبة بجمال بعض نثريات الطبيعة ، كإشراق الشمس ، ونور القمر ، ولين الأغصان ، وشذا الورد ، ورقة النسيم .. وبالرغم من سير شعراء العصر المملوكي في هذا الاتجاه القديم إلا أنهم حاولوا أن يضفوا عليه لمسة من لمسات التجديد والمعاصرة التي تناسب ذوقهم ، فمثلاً قول الشاعر محمد بن مكي([1]) :

أَهْوَاهُ كَالْبَدْرِ لَكِنْ فِيْ تَبَدُّلِهِ وَالْغُصْنِ فِيْ مَيْلِهِ عَنْ لَوْمِ لائِمِهِ
سَمِحٌ بِمُهْجَتِهِ مَا رُدَّ نَائِلُهُ كَأَنَّمَا حَاتِمٌ فِيْ فَصِّ خَاتِمِهِ

ينطوي على محاولة استثمار صفة تبدل حال البدر ، ليخرج عن المألوف الثابت في تشبيه جمال وجه المرأة بجمال البدر ، كما يضيف إلى ما عُرف من صفة النضارة واللين المستمدة من الأغصان صفة اتقاء اللوم ، كما تميل الأغصان متقية الرياح والزوابع ، ويشحن صفة السماحة والكرم التي اشتهر بها حاتم الطائي بإيحاءات تشي بالوصال وعدم الصدود ..

([1]) هو محمد بن مكي بن أبي غنائم الدمشقي ، المتوفى سنة 742 هجرية ، كان وكيل بيت المال بطرابلس وكاتب الإنشاء بها ، كان يعرف فنوناً من العلوم ، حسن الخلق والنظم والشعر .. الدرر الكامنة 163/4 .

ومن طريف معاني الصدود والوصال - أيضاً - قول أحمد بن محمد بن سلمان بن حمائل([1]):

أُعَاهِدُ قَلْبِي فِي اجْتِنَابِ هَوَاكم ... ويَغْلِبنِي شَوْقِي إِلَيْكم فأَنْكثُ
وأَحْلِفُ لاَ وَاصلتكم مَا بَقِيتم ... وأَعْلَمُ أَنَّ الوَصْلَ خَيْرٌ فَأَحْنُثُ

وقد شبه صفي الدين الحلّي المحبوبة بالشمس ، وعدد ثلاثة من أوجه الشبه ، وهي الجمال ، وعلّو المنزلة ، والنور المُبهج ، ثم طالب المحبوبة أن تستكمل الصفة الرابعة من الصفات التي تتصف الشمس بها، وهي صفة العدل كما يقول([2]) :

يَا مَنْ حَكَتْ شَمْسَ النَّهَارِ بِحُسْنِهَا ... وبُعَادِ مَنْزِلِهَا وبَهْجَةِ نُورِهَا
هَلاَّ عَدَلْتِ كَعَدْلِهَا إِذْ صَيَّرَتْ ... للنَّاسِ غَيْبَتَها بِقَدْرِ حُضُورِهَا

أما الشاب الظريف([3]) فيسأل الظباء كيف تعلمت الظباء صيد الأسود في شَرَك أهدابها ، قاصداً التعبير عن جمال العيون والأهداب

([1]) هو أحمد بن محمد بن سلمان بن حمائل ، شهاب الدين ، أبو جعفر ، ويُعرف أيضاً بابن غانم ، عالم أديب اشتغل في ديوان الإنشاء بمصر ودمشق وصفد ، طاف العديد من البلاد العربية كاليمن ومكة ، توفي بدمشق سنة 737 هجرية . للاستزادة انظر : الدرر الكامنة 157/1 - 158 . والأبيات في : مسالك الأبصار 319/16 .

([2]) الديوان 420 .

([3]) هو شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان التلمساني ، كان والده عفيف الدين من العلماء والأدباء البارزين ، ترك العديد من الشروح والمؤلفات وديوان شعر وتوفي سنة 680 هجرية . ولد شمس الدين محمد بالقاهرة سنة 661 ثم انتقل مع والده إلى دمشق ، كان شاعراً مجيداً خفيف الظل حسن الخلق .. توفي بدمشق سنة 688 هجرية وهو غض الشباب لم يتخط السابعة والعشرين من عمره . راجع ترجمته في : ديوان الشاب الظريف ، تحقيق شاكر هادي شكر ، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة العربية ، بيروت 1985م ، ص 5 - 17 .

وصفات الرقة المعروفة عن الظباء ، بطرافة تتمثل في تجاهل قانون الطبيعة([1]) :

وَبِاللهِ قُلْ لِي أَيُّهَا الظَّبْيُ كَيْفَ قَدْ   تَعَلَّمْتَ صَيْدَ الأُسْدِ فِي شَرَكِ الهُدْبِ

أما الشاعر شهاب الدين محمود فادَّعى أن المحبوبة تعمل معلمة في مدرسة الطبيعة ، فهي تعلم الأشجار والأغصان كيف تتمايل وتنثني ، وتعلم الورقاء كيف تغني ويتعالى هديلها ، فيقول([2]) :

تَثَنَّى وَأَغْصَانُ الأَرَاكِ نَوَاضِرُ   فَنُحْتُ وَأَسْرَابٌ مِنَ الطَّيْرِ عُكَّفُ
فَعَلَّمَ بَانَاتَ النَّقَا كَيْفَ تَنْثَنِي   وَعَلَّمْتُ وَرْقَاءَ الْحِمَى كَيْفَ تَهْتِفُ

لقد جعل العديد من شعراء الغزل المرأة مصدراً من مصادر الجمال ، وأن الطبيعة تستعير منها بعض صفات بهائها وجمالها ، فالسَّراج الورّاق([3]) مثلاً يرى محبوبته تارة مصدراً تستعير منه الطبيعة بعض صفات جماله ، ويماهي بينها وبين صفات الطبيعة البهية تارة أخرى ، من ذلك قوله([4]) :

أَعَارَتْ اللِّيْنَ عِطْفَ البَانَةِ النَّضِرَهْ   هَيْفَاءُ كَالْغُصْنِ فَوْقَ الدِّعْصِ مُؤْتَزِرَهْ([5])
يَكَادُ مَاءُ الشَّبَابِ الدَّمِنِ يَقْطُرُ مِنْ

([1]) الديوان ص 63 .

([2]) الدرر الكامنة 198/4 – 199 .

([3]) الشاعر هو سراج الدين أبو حفص عمر بن محمد بن الحسن المصري المعروف بالسراج الوراق ولد سنة 615 هجرية ، توفي سنة 695 هجرية ، وكان إماماً فاضلاً وأديباً مكثراً متصرفاً في فنون البلاغة .. للاستزادة راجع : الكوكب الثابت ص312 – 316 . والنجوم الزاهرة 69/8 . وعبد العليم القباني : مع الشعراء أصحاب الحرف ، وزارة الثقافة المصرية ، القاهرة 1967م ، ص 59 – 80 .

([4]) الكوكب الثابت 215 – 216 . وله قصيدة أخرى تلتقي مع هذه القصيدة في كثير من المعاني والصور . النجوم الزاهرة 69/8 .

([5]) الدعص : كثيب الرمل ، وقد استعارها الشاعر للردف .

يَا خَجْلَةَ الوَرْدِ مِنْ تِلْكَ الخُدُوْدِ وَيَا أَدِيْمِ وَجْنَتِهَا مِنْ رِقَّةِ البَشْرَهْ([1])
كَالْغُصْنِ مَائِسَةٌ والظَّبْيِ نَاعِسَةٌ تَفَتَّتَ المِسْكِ مِنْ أَنْفَاسِكِ العَطِرَهْ
لَوْ أَنَّهَا أَدْرَكَتْ عَصْرَ الكَلِيْمِ رَأَي وَالشَّمْسِ سَافِرَةٌ وَالْبَدْرِ مُعْتَجِرَهْ([2])
تَغْرُنَا بِإِنْكَارٍ مِنْ لَوَاحِظِهَا أَجْفَانَهَا حُشِرَتْ مَعَ جُمْلَةِ السَّحَرَهْ
وَلاَ تَزَالُ عَلَى العُشَّاقِ مُنْتَصِرَهْ

وقد توقف شعراء هذا العصر عند طول شَعر المحبوبة ، وتغنّوا بالجفون الناعسة ، والأهداب الطويلة ، والعيون الواسعة ، والقدّ المعتدل ، والخصر الناحل ..

فمن بديع التعبير عن طول شَعر المحبوبة قول الشاب الظريف([3]):

أُحَاذِرُ طُوْلاً مِنْ ذُؤابَةِ شَعْرِه فَقَدْ وَصَلَتْ مِنْ قَدِّهِ لِفُؤادِي

ومن طريف ما قيل في الجفون الناعسة والنظرات الأخاذة قول صفي الدين الحلّي([4]) :

يَا ضَعِيْفَ الجُفُونِ أَضْعَفْتَ قَلْباً كَانَ قَبْلَ الهَوَى قَوِيّاً مَلِيّاً
لاَ تُحَارِبْ بِنَاظِرَيْكَ فُؤادِي فَضَعِيْفَانِ يَغْلِبَانِ قَوِيّاً

وعدد الشاب الظريف ما أعجبه من مفاتن محبوبته فذكر سحر عينيها ، وإشراق وجهها ، وبريق ثناياها ، ورقة خصرها ، وجفونها الفاترة ، وبين أثر ذلك في نفوس مَن يرونها ، فقال([1]) :

([1]) الدمن : المتجمع ، وتدمن : تجمع .

([2]) اعتجرت : شدت الثوب على رأسها .

([3]) ديوان الشاب الظريف 96 .

([4]) مسالك الأبصار 327/16 .

وَمَا فِيْهِ مِنْ حُسْنٍ سِوَى أَنَّ طَرْفَهُ   لِكُلِّ فُـؤادٍ فِـي البَرِيَّـةِ صَـائِدُ
وَإِنَّ مُحَيَّـاهُ إِذَا قَابَـلَ الـدُّجَى   أَنَارَ بِهِ جُنْحَ مِنَ اللَّيْـلِ رَاكِـدُ([2])
وَإِنَّ ثَنَايَـاهُ نُجُـومٌ لِبَـدْرِهِ   وَهُنَّ لِعِقْدِ الحُسْنِ فِيْـهِ فَرَائِـدُ([3])
فَكَمْ يَتَجَافَى خَصْرُهُ وَهـوَ نَاحِـلُ   وَكَمْ يَتَحَالَى رِيْقُهُ وَهـوَ بَـارِدُ([4])
وَكَمْ يَدَّعِي صَوْناً وَهَذِي جُفُونُـهُ   بِفَتْرَتِهَـا لِلْعَاشِـقِيْنَ تُوَاعِـدُ

وقد توقف العديد من الشعراء عند الشامة ، وتغنوا بجمالها على خدّ المحبوبة ، من ذلك قول برهان الدين القيراطي([5]):

قَـسَماً بِرَوْضَـةِ خَـدِّهِ وَنَبَاتِهَـا   وَبِآسِهَا المُخْـضَرِّ فِـيْ جَنَبَاتِهَـا
وبِسُورَةِ الحُسْنِ الّتِي فِـيْ خَـدِّهِ   كَتَـبَ العِـذَارُ بِخَطِّـهِ آيَاتِهَـا
وَبِقَامَـةٍ كَالْغُـصْنِ إِلاَّ أَنَّنِـي   لَمْ أَجْنِ غَيْرَ الصَّدِّ مِـن ثَمَرَاتِهَـا
لأُعَزِّرَنَّ غُـصُونَ بَـانٍ زَوَّدَتْ   أَعْطَافَه بِـالقَطْعِ مِـنْ عَـذَبَاتِهَا

ومن معاني الغزل الحسي الرقيقة قول ابن نباته المصري في الخال([6]) :

للهِ خَالٌ عَلَىْ خَـدِّ الحَبِيْـبِ لَـهُ   بِالْعَاشِقِيْنَ كَمَا شَاءَ الهَوَى عَبَـثُ
أَوْرَثْتُهُ حَبَةَ القَلْـبِ القَتِيْـلِ بِـهِ   وَكَانَ عَهْدِي بِأَنَّ الخَالَ لاَ يَـرِثُ

([1]) ديوان الشاب الظريف 86 .

([2]) جنح الليل ، بكسر الجيم أو ضمّه : طائفة منه .

([3]) الفرائد جمع فريدة : الجوهرة النفيسة .

([4]) تجافى : لم يلزم مكانه ومال من جانب إلى جانب .

([5]) هو شرف الدين ، إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عسكر ابن شادي ، الشهير بالقيراطي المصري ، ولد بمصر سنة 726 وتوفي بمكة سنة 781 هجرية ، درس بمصر ولازم العلماء فيها ، برع في الفقه والأصول والعربية ، وروى الحديث ... للاستزادة راجع ترجمته في : النجوم الزاهرة 160/11 – 162. والدرر الكامنة 31/1 .

([6])

وكذلك قول العز الموصلي في الشامة([1]):

لَحَظْتُ مِنْ وَجْنَتِهَا شَامَةً ... فَابْتَسَمَتْ تَعْجَبُ مِنْ حَالِي
قَالَتْ : قِفُوا واسْتَمِعُوا مَا جَرَىْ ... قَدْ هَامَ عَمِّي الشَيْخُ فِيْ خَالِي

وقد حاول بعض الشعراء أن يستخرج من المعاني المتداولة حول الرقيب وتخرصاته لدى شعراء الغزل العفيف معاني جديدة تتصل بتحقيق تلك التخرصات ، من ذلك اقتراح ابن منظور([2]) على حبيبته تحقيق ظنون الناس ، لكي لا يأثم الناس ، وأن يتحمل هو وهي الإثم بدلاً من الناس ، وهو واثق بعفو الله تعالي عنهما([3]) :

النَّاسُ قَدْ أَثِمُوا فِيْنَا بِظَنِّهِم ... وَصَدَّقُوا بِالَّذِي أَدْرِي وَتَدْرِيْنَا
مَاذَا يَضُرُّكَ فِيْ تَصْدِيْقِ قَوْلِهِم ... بِأَنْ يُحَقِّقَ فِيْنَا مَا يَظُنُّوْنَا
حَمْلِي وَحَمْلُك ذَنْباً وَاحِداً ثِقَةً ... بِالْعَفْوِ أَجْمَلَ مِنْ إِثْمِ الوَرَى فِيْنَا

عقّب صلاح الدين الصفدي على هذه الأبيات بقوله : "هو معنى مطروق للقدماء لكن زاد فيه زيادة ، وقوله ثقة بالعفو من أحسن متممات البلاغة"([4]) .

([1]) هو عز الدين بن الحسين بن علي الموصلي ، الشاعر المشهور . نزيل دمشق ، وصاحب البديعية التي عارض بها بديعية صفي الدين الحلي ، توفي سنة 789 . نفحة الريحانة 446/2 .

([2]) هو محمد بن مكرم الأنصاري الأفريقي جمال الدين أبو الفضل ولد سنة 630 هجرية وكان مغرماً باختصار الكتب المطولة فاختصر الأغاني ، والعقد الفريد ، والذخيرة ، وغيرها ، من مصنفاته معجم "لسان العرب" ، عمل في ديوان الإنشاء طيلة عمره ، وولي قضاء طرابلس .. توفي سنة 711 هجرية . راجع ترجمته في : الدرر الكامنه 161/4 – 162 .

([3]) الدرر الكامنة 162/4 .

([4]) السابق 162/4 .

لقد انبهر بعض الشعراء بسمات المرأة غير العربية التي كانت جزءاً من نسيج المجتمع في العصر المملوكي ، وتغزلوا ببعض صفاتها ، الأمر الذي يعد جديداً على معاني شعر الغزل ، من ذلك مثلاً قول عبد الرحمن ابن وفا([1]) في صاحبة البشرة الصفراء([2]):

وَفِيْ ذَهَبِيِّ اللوْنِ صِيْغٌ لِمِحْنَتِي ... يُطِيْلُ امْتِحَاناً لِي وَمَا أَنَا زَائِفُ
يُذِيْبُ فُؤادِي وَهوَ لاَ غِشَ عِنْدَهُ ... فَيَا ذَهَبِيَّ اللونَ إِنَّكَ حَائِفُ([3])

وكذلك تفضيل علاء الدين الجويني([4]) حاضرة الأتراك على بادية الأعراب ، وانبهاره بالتركيات وعيونهن الضيقة ، يقول([5]) :

أَبَادِيَةَ الأَعْرَاب عَنِّي فَإِنَّنِي ... بِحَاضِرَةِ الأَتْرَاكِ نِيْطَتْ عَلاَئِقِي
وَأَهْلَكَ يَا نُجْلَ العُيُوْنِ فَإِنَّنِي ... جُنِنْتُ بِهَذَا النَّاظِرِ المُتَضَايِقِ

وغزل عمر بن الوردي بفتاة مغولية أسرت قلبه بجمالها([6]) :

لِي مِنْ بَنَاتِ المُغْلِ مَنْ ... تَفْضَحُ مِنِّي مَا اسْتَتَرْ
وَكَيْفَ حَالُ مُسْلِمٍ ... أَصْبَحَ فِيْ أَسْرِ التَتَرْ

وغزل أحمد بن علي الصنعاني في إحدى الفتيات السوداوات الحبشيات([1]):

([1]) هو عبد الرحمن ويسمي أيضاً محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن وفا ، السكندري الأصل ، كان حسن الأخلاق رقيق الشعر .. توفي غريقاً في نهر النيل سنة 814 هجرية . للاستزادة راجع ترجمته في : الضوء اللامع 58/4 – 59 .

([2]) الضوء اللامع 59/4 .

([3]) الحيف : الظلم ، والحائف : الظالم .

([4]) هو علاء الدين عطاء ملك بن محمد الجويني كان صاحب الديوان ببغداد ، وله شعر حسن توفي سنة 680 هجرية . راجع : تاريخ ابن الوردي 222/2 .

([5]) تاريخ ابن الوردي 222/2 .

([6]) ديوان ابن الوردي 336 .

هَوِيْتُهَا أَمْجَرِيَّةً قَدْ أَضْنَتْ فُؤادِي وَلَمْ تُوَاصِلْ
كَأَنَّهَا البَدْرُ فِي الدَّيَاجِي أَوْ هِيَّ الشَّمْسُ فِي الأَصَائِلْ

إلى غير ذلك مما قاله شعراء الغزل الحسِّي في وصف ملامح جمال المرأة غير العربية التي انخرطت في تركيبة المجتمع الإسلامي المتعدد الأعراق في العصر المملوكي .

وقد استمر تدفق هذا اللون من ألوان شعر الغزل في **العصر العثماني** وكما شكا شعراء الغزل العفيف من البعاد والصدود والهجر كذلك شكا شعراء الغزل الحسي ، فابن السَّمَّان([2]) مثلاً يتحدث عن شوقه للديار بالرغم من صدود المحبوبة ، ويبرر هذا الصدود بقوله([3]) :

يُشَوِّقُنَا للدَّارِ ذِكْرُ الحَبَائِبِ وَيُنْطِقُنَا بِالحَمْدِ فَيْضُ المَوَاهِبِ
وَإِنَّ لَقَوْمٌ مَا نَرَى الحُبَّ سُبَّةً إِذَا مَا رَأَتْهُ سُبَّةً آلُ غَالِبِ
وَلا نَرْهَبُ الأَقْدَارَ إِلاَّ إِذَا رَمَتْ سِهَامَ المَنَايَا مِنْ قِسِيِّ الحَوَاجِبِ
وَلا نَعْذُلُ الأَحْبَابَ فِي الصَّدِّ وَالجَفَا وَلا نَرْتَجِي سِلْمَ العَدُوِّ المُحَارِبِ
إِذَا كَانَ قَلْبُ المَرْءِ لَيْسَ يُطِيْعُهُ فَأَجْدَرُ بِالعِصْيَانِ قَلْبُ الأَجَانِبِ

([1]) در الحبب 142/1 .

([2]) هو عبد الباقي بن أحمد بن محمد ، المعروف بابن السمان ، الدمشقي ، ولد سنة 1055 هجرية ، تلقى علومه في دمشق والقاهرة ، وسافر إلى بلاد الروم ، وأبح نديماً للسلطان العثماني محمد ، اشتغل بالتدريس والتأليف .. توفي سنة 1088 هجرية . راجع خلاصة الأثر 270/2 .

([3]) نفحة الريحانة 239/1 .

وقد انصرف العديد من شعراء الغزل الحسي عن الوقوف على أطلال المحبوبة ، وانشغلوا بالحديث عن الوصال والصدود والتغني بمفاتن المحبوبة ، وبرروا ذلك بمثل قول عبد الله بن أحمد([1]) :

مَاذا يَفِيدُكَ نَدْبُ الأَرْبُعِ الدُّرُسِ   وشَرْحُ سَالِفِ عَيْشٍ بِالعُذَيْبِ نُسِي
فَشَنِّفِ السَّمعَ مِنْ ذِكْرَى مُعَتَّقَةٍ   جَلْوَتُهَا كَشُمُوسٍ فِيْ دُجَى الغَلَسِ

يسير الشاعر في ركب أبي نواس الذي حثَّ الشعراء على عدم الوقوف على الطلل لعدم جدواه ، ونصحهم بشرب الخمر([2]) .

ومما قيل في طلب رؤية المحبوبة سافرة ، نذكر قول أحمد الصفدي([3]) الذي يجعل فيه الطبيعة تستعير بعض صفات جمالها من محبوبته ، ويقسم أنه لن يحيد عن حبها حتى أخر حياته ، يقول([4]) :

أَمِطْ اللِّثَامَ عَنِ الْجَبِيْنِ المُزْهِرِ   وَاسْفُرْ عَنِ الْوَجْهِ الأَغَرِّ المُقْمِرِ
وَامْنَح عيُوْنِي نَظْرَةً أُحْيَى بِهَا   فَلَقَدْ فَقَدْتُ تَجَلُّدِي وَتَصَبُّرِي
عَجَباً لِقَلْبِي كَمْ يُقَاسِي ذِلَّةً   وَالذُّلُّ لَذَّ لَهُ بِغَيْرِ تَضَجُّرِ

....

سَرَقَتْ غُصُوْنُ الْبَانِ مِنْكَ تَمَايُلاً   فَلِذَاكَ قَدْ قُطِعَتْ وَحُقَّ لِمُفْتَرِي

([1]) هو عبد الله بن أحمد بن إسحق بن إبراهيم بن المهدي ، أحد علماء "صنعاء" البارزين ، درّس النحو والمنطق والمعاني والبيان والحديث الشريف في جامع صنعاء .. توفي سنة 1170 هجرية . راجع : البدر الطالع 261/1 .

([2]) من ذلك قول أي نواس :

لا تَبكِ لَيْلَى وَلا تَطْرَب إلى هِنْدِ   وَاشْرَبْ على الرَّاحِ مِن حَمْرَاءَ كَالوَرْدِ

([3]) هو أحمد بن محمد بن محمد الصفدي ، ولد بصفد ، وذهب إلى دمشق قبل أن يبلغ العشرين من عمره ، اشتغل بعلم القراءات ونسخ الكتب ، وقرأ على بعض علماء دمشق ، ثم ذهب إلى الحج وأخذ عن علماء الحرمين ، سافر إلى بلاد الروم مرات عديدة ، عمل في التدريس ، ألف منظومة في العقائد ، وكتاب جمع فيه ألف حديث ، وله شعر كثير . توفي سنة 1100 هجرية . راجع خلاصة الأثر 356/1 – 359 .

([4]) نفحة الريحانة 414/1 – 415 .

يَا فَائِقَ الحُوْرِ الحِسَانِ بِوَجْهِهِ   وَجَمَالِ غُرَّتِهِ المَصُوْنِ المُبْهِرِ
قَسَماً بِوَجْهِكَ وَهْوَ شَمْسٌ أَشْرَقَتْ   وَبِمَا بِفِيْكَ مِنَ الرُّضَابِ المُسْكِرِ
لا حُلْتُ عَنْ مُرِّ الهَوَى مَا دُمْتَ فِي   قَيْدِ الحَيَاةِ وَلَوْ بُعِثْتُ لِمَحْشَرِ

وقد تغنى شعراء الغزل الحسي العثمانيون بمفاتن المحبوبة ، وشبه بعضهم أعضاء جسدها ببعض عناصر الطبيعة ، في الرقة والنضارة واللين والألوان المبهجة .. من ذلك قول عبد الرحمن بن إبراهيم الموصلي([1]) الذي ينطوي على الكثير من الصفات الحسية التي تغزل بها الشعراء بالمرأة عامة([2]) :

سَلَبُوا الغُصُونَ مَعَاطِفاً وَقُدُودَا   وَتَقَاسَمُوا وَرْدَ الرِيَاضِ خُدُوْدَا
طَعَنُوا القُلُوبَ بِمَا تَلاشَى دُوْنَه   طَعْنُ الرِّمَاحِ وَسَدَّدُوا تَسْدِيْدَا
فَتَنُوا الوَرَى بِلَوَاحِظٍ وَتَجَاوَزُوا   بِالفَتْكِ مِنْ نَهْبِ العُقُولِ حُدُوْدَا
نَظَمُوا الثَنَايَا فِي المَبَاسِمِ لُؤْلُؤاً   تَحْتَ الزُمُرُّدِ وَالعَقِيْقِ عُقُوْدَا
تَخِذُوا البَنَفْسَجَ فِي الشَقِيْقِ عَوَارِضاً   وَالْيَاسَمِيْنَ مَعَاصِماً وَزُنُوْدَا
بَدَلُوا الخُصُوْرَ مِنَ الخَنَاصِرِ رِقَّةً   وَاسْتَبْدَلُوا حُقَقَ اللُّجَيْنِ نُهُوْدَا
فَهُمُ المُلُوْكُ الصَائِلُوْنَ عَلَى الوَرَى   وَهُمْ الظِّبَاءُ القَائِدُوْنَ أُسُوْدَا
نَظَرُوا إِلَى الجَوْزَاءِ دُوْنَ مَحَلِّهِمْ   فَعَدَوْا عَلَى هَامِ السِّمَاكِ قُعُوْدَا
مِنْ كُلِّ مَنْ جَعَلَ الدُّجَى فَرْعاً لَهُ   وَالبَدْرَ وَجْهاً والصَبَاحَ الجِيْدَا
رَيَّانُ مِنْ مَاءِ النَّعِيْمِ إِذَا بَدَا   خَرَّتْ لَهُ زُهْرُ النُجُومِ سُجُوْدَا
كَالْمَاءِ جِسْماً غَيْرَ أَنَّ فُؤَادَه   أَضْحَى عَلَى أَهْلِ الهَوَى جُلْمُوْدَا

([1]) هو عبد الرحمن بن إبراهيم بن عبد الرحمن الموصلي ، ولد سنة 1031 هجرية ، كان أديباً فاضلاً ، وشيخاً من شيوخ الصوفية المعروفين في عصره ، توفي بدمشق سنة 1118 هجرية . راجع ترجمته في: نفحة الريحانة 430/1 – 443 .

([2]) نفحة الريحانة 432/1 – 432 .

تَزْدَادُ مِنْ فَـرْطِ الحَيَـاءِ خُـدُوْدُه   عِنْـدَ اسْـتِمَاعَ تَـأَوُهِي تَوْرِيـدَا
لَوْ أَبْصَرَ النُّصَاحُ فَـائِقَ وَجْهِـه   عَذَلُوْا العَذُولَ وَحَـارَبُوا التَّفْنِيْـدَا
أَوْ لَـوْ رَآهُ رَاهِـبٌ مِـنْ بِيْعَـةٍ   أَلْقَى الـصَلِيْبَ وَلازَمَ التَّوْحِيْـدَا

رسم الشاعر صورة للمرأة الجميلة في عصره ، وعدّد الـصفات الحسية العامة التي يتصف بها جسمها ؛ الوجه والثغر والـشعر والنحـر والقوام .. دون أن يعبر عن تجربة خاصة ، أو امرأة بعينها ، واكتفـى بتمثيل النظرة العامة لجمال المرأة في عصره ، ولم يتوقف عند أية صفة معنوية باستثناء توظيفه لخجل المرأة في وصف احمرار خديها .

وقد توقف شعراء الغزل في هذا العصر عند جميع معاني الغـزل الحسِّي ، واجتهدوا في تجديد القديم منها ، وتوليد الجديد الـذي ينـسجم وروح العصر ، ففي جمال وجه المرأة نذكر قول أبي الطيب الغَـزِّيّ([1]) الذي يذكر فيه احمرار الوجه وطول الأهداب .. ([2]) :

خَالَـسْتُهُ نَظَـراً وكَـانَ مُـوَرَّداً   فَـازْدَادَ حَتَّـى كَـادَ أَنْ يَتَلَّهَبَـا
انْظُـر إِلَيْـهِ كَأَنَّـهُ مُتَنَـصِّلٌ   بِجُفُونِهِ مِنْ طُولِ مَـا قَـدْ أَذْنَبَـا
وَكَـأَنَّ صَـفْحَةَ خَـدِّهِ وَعِـذَارَه   تُفَّاحَـةٌ رُمِيَـتْ لِتَقْتُـلَ عَقْرَبَـا

([1]) هو أبو الطيب محمد بن محمد بن محمد الغزي ، شاعر مجيد ، درس الأدب والفقه على علماء دمـشق ، ورحل إلى مصر ، ثم عاد لدمشق واشتغل بالتدريس فيها ، توفي سنة 1042 هجرية . راجع ترجمته في: خلاصة الأثر 135/1 .

([2]) ريحانة الألبا 261/1 .

تغزل الشعراء بعيني المرأة ، وعدّها بعضهم سبباً للوقوع في هواها ، فمحمد المُرابط الدلائي([1]) مثلاً يعبر عن وانبهاره بجمال عيني حبيبته ، وسكره ونشوته بنظراتها ، يقول([2]) :

شَجِيْتُ إِذْ وَمَضَتْ للصَّبِّ عَيْنَاكِ   وَكِدْتُ أَقْضِي هَوَى مِنْ حُسْنِ مَرْآكِ
يَا مَنْ ثَمِلْتُ بِرَاحٍ مِنْ لَوَاحِظِهَا   لله مَا فَعَلَتْ فِيْنَا حُمَيَّاكِ
أُفْرِدْتِ حُسْناً كَمَا أُفْرِدْتُ فِيْكِ صَفَا   وُدٍّ وَحَاشَاكِ مِنْ شِرْكٍ وَإِشْرَاكِ
تَكَامَلَتْ فِيْكِ أَوْصَافٌ جَلَلْتِ بِهَا   عِنْدِي فَسُبْحَانَ مَنْ بِالحُسْنِ حَلاَّكِ

ومن معاني الغزل في عيني المرأة أيضاً ما قرره الحسن بن جابر([3]) من الوقوع في أسر نظرات محبوبته ، وهو يجهل أنه لا خلاص لأسير الحب([4]):

لَوْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهَا الأَحْدَاقُ   يَوْمَ النَّوَى مَا خَاطَرَ المُشْتَاقُ
جَهِلَ الهَوَى حَتَّى غَدَا فِي أَسْرِهِ   والحُبُّ مَا لأَسِيْرِهِ إِطْلاَقُ

([1]) هو أبو عبد الله محمد المرابط بن محمد بن أبي بكر الدلائي ، قدم إلى القاهرة سنة 1080 بعد أن استولى على المغرب السلطان رشيد بن علي الشريف الحسني ، قال عنه المحبي أنه نادرة العصر في علم العربية ، ورأس المؤلفين في زمانه ، من مؤلفاته "نتائج التحصيل في شرح التسهيل" و"الدرة الدرية في محاسن الشعر وغرائب العربية" ، توفي في مدينة فاس بالمغرب سنة 1089 هجرية . راجع : خلاصة الأثر 203/1 – 204 .

([2]) نفحة الريحانة 20/5 .

([3]) هو الحسن بن علي بن جابر الهَبَل اليمني ، ولد بصنعاء سنة 1048 ، من أشهر شعراء اليمن قاطبة ، كان متديناً زاهداً ، اشتغل بالعلوم والآداب ، توفي سنة 1079 هجرية . راجع ترجمته في : نفحة الريحانة 553/3 – 562 .

([4]) نفحة الريحانة 554/3 .

ومن معاني الغزل الحسيّ التي تدور حول ولع الشعراء بـالعيون الجميلة ، نذكر أيضاً قول المهنار([1]) في سهام العيون التي ترميها عـن قسيّ الحواجب([2]) :

وَظَبْيٌ رَمَانِي عَنْ قِسِيِّ حَوَاجِبِ ... بِأَسْهُمِ لَحْظٍ جُرحهَا فِي الهَوَى غَنَمُ
عَلَى نَفْسِهِ فَلْيَبْكِ مَنْ ضَاعَ عُمْرُه ... وَلَيْسَ لَهُ مِنْهَا نَصِيْبٌ وَلاَ سَهْمُ

وقد أفرد العديد من الشعراء القصائد الطوال للتغزل بملامح جمال المرأة ، فذكروا العيون والمقل ، والرموش والجفون الناعسة ، والعِذار والوجنتين ، والفم والثنايا ، والقوام والخصر .. وباقي ملامح جمال المرأة وشبهوها بأبهى نثريات الطبيعة ، من ذلك قول صالح بن إبـراهيم بـن المُزوِّر ([3]) :

يَا عَيْنُ لا تَهْجَعِي فَالسَّعْدُ وَافَاكِ ... وَزَارَ مَنْ تَعْشَقِي لَيْلاً وَحَيَّاكِ
مَلِيْحَةٌ صَاغَهَا نُوْراً مُصَوِّرُهَا ... فَأَفْتَنَتْ كُلَّ ذِي رَأْيٍ وَإِدْرَاكِ
تَعَلَّمَ السِحْرَ هَارُوتٌ وَأَتْقَنَهُ ... مِنْ لَحْظِهَا حِيْنَ أَرْمَاهُ بِأَشْرَاكِ
كَمْ عَاشِقٍ ضَلَّ فِيْ دَاجِي الذَّوَائِبِ قَدْ ... أَهْدَاهُ نُورُ صَبَاحٍ مِنْ مُحَيَّاكِ
حَوَيْتِ جَنَّةَ حُسْنٍ فِي الخُدُودِ عَلاَ ... مِنْ فَوْقِهَا عَرْشُ شَعْرٍ جَلَّ عَنْ حَاكِ
وَكَنْزَ ثَغْرٍ حَصِيْناً بِالعَقِيْقِ حَوَى ... جَوَاهِراً نُظِمَتْ مِنْ غَيْرِ أَسْلاكِ
يَا طَلْعَةَ البَدْرِ يَا شَمْسَ النَّهَارِ وَيَا ... غُصْنَ الرِيَاضِ وَذَاتَ المَبْسَمِ الزَّاكِي

([1]) هو الأديب الشاعر إبراهيم بن يوسف المعروف بالمهنار المكي ، كان أبوه مملوكاً ، وهو أكثـر المكيـين شعراً ، له الكثير من المجاميع الأدبية والعلمية .. توفي بعد سنة 1040 هجرية بقليل . انظر ترجمته في: خلاصة الأثر 53/1 – 57 .

([2]) خلاصة الأثر 56/1 .

([3]) هو صالح بن إبراهيم بن خليل الدمشقي الشهير بالمزور ، ولد بدمشق سنة 1090 تقريباً ، اشتغل بالخطابة في صالحية دمشق ، توفي سنة 1152 هجرية . راجع : ذيل نفحة الريحانة 75 – 79 .

تـــاللهِ لا أَبْتَغِــي خِــلاًّ يُـسَامِرُنِي   يا ظَبْيَةً أَسَــرَتْنِي عَــيْنُ لُقْيَــاكِ([1])
لا سَــامَحَ اللهُ عُــذَّالاً لَنَــا عَــذَلُوا   لَوْ عَايَنُوا لَغَدَوْا مِنْ بَعْضِ أَسْــرَاكِ

وصف الشاعر محبوبته بمعظم الصفات التي وصفت بها المــرأة الجميلة في عصره ، واختار من الطبيعة ما مثّل تلك الــصفات ووضــح مكنونها ، ولم ينس أن يُعرِّض بالعُذال ليؤكد ما ذكره من صفات جمالها ، وليبرر حبه لها ، فهم – كما يقول – لو رأوها لوقعوا في غرامها .

ومما جاء في التجلد والصبر على جفا المحبوبة وصدودها ، وذكر العُذال والشامتين ، والتودد في طلب الوصال ، وغيرها من المعاني التي اعتدناها في الغزل العفيف ، جاءت ممتزجة بمعاني الغزل الحسيّ ، نورد قول الشاعر محمد الكَنْجيّ([2]) :

أُعَلِّــلُ نَفْــسِي بِطُــولِ الأَمَــلْ   وَأَعْــدِلُ عَمَّــنْ لَــدَيْكُم عَــذَلْ
وأُظْهِــرُ لِلــشَّامِتِيْنَ الهَنَــا   وَأَيْسَرُ مَا فِــي الحَشَا مَــا قَتَــلْ
وَأُمْسِي طَعِيْنَ القُــدُودِ الرِّشَــاق   وَيُضْحِي فُــؤَادِي جَــرِيْحَ المُقَــلْ
فَــوَاحَرَّ قَلْبَــاهُ مِــنْ شَــادِنٍ   لَطِيْــفِ التَّثَنِّــي ظَرِيْــفِ المَيَــلْ
بَــدِيْعِ المُحَيَّــا لَــهُ وَجْنَــةٌ   مُــصَبَّغَةٌ بِــاحْمِرَارِ الخَجَــلْ
يُــرَنِّحُ رِيْــحُ الــصَّبَا عِطْفَــهُ   فَيُوْرِثُ قَلْبِــي الــضَّنَى وَالعِلَــلْ
إِلَى كَمْ تَدَعْ يَــا شَــقِيْقَ الغَــزَالِ   مُعَنَّــاكَ مُــضْنَى بِحَــالٍ مَثَــلْ
وَحَتَّى مَتَى ذَا الجَفَــا وَالــصُّدُوْدُ   وَأَيَّـــةُ دَاعٍ إِلَـــى ذَا العَمَـــلْ
فَبِــاللهِ يَــا ظَبْــيَ ذَاكَ الحِمَــى   بِمَــنْ رَقَــى لِلْعُــلاَ وَاكْتَمَــلْ

([1]) في ذيل النفحة "غير لقياك" ، وقد أثبت رواية سلك الدرر : "عين لقياك" لأنها أكثر ملائمة للمعنى . راجـع القصيدة في سلك الدرر 203/2 .
([2]) ذيل نفحة الريحانة 56 – 57 .

بِعَهْـدٍ وَفِـيٍّ جَـرَى بَيْنَنَـا   عَلَى صِدْقِهِ لَمْ يَشِنْهُ زَلَلْ
بِبَاهِي المُحَيَّا بِغُنْجِ العُيُونِ   بِمَيْلِ القَوَامِ إِذَا مَا اعْتَدَلْ
بِرِقَّةِ خَصْرٍ بَرَاهُ النُّحُولُ   فَأَصْبَحَ يَشْكِي ارْتِجَاجَ الكَفَلْ
بِرُحْمَاكَ صِلْنِي وَلاَ تَجْفُنِي   وَجُدْ لِي عَلَى رَغْمِ مَنْ لِيْ عَذَلْ

لم يترك الشاعر معنى من معاني الغزل الحسيّ إلاّ ألمّ به ، لكي يرسم صورة واضحة المعالم لمحبوبته ، فذكر قوامها الرشيق ومقلتيها وأثر جمالهما في فؤاده ، وذكر مشيتها التي تشبه مشية الظبية الشابة في تثنيها وتدللها ، ووصف وجهها جملة بالجمال ، ثم فصّل في وصف وجنتها بالاحمرار خجلاً ، ثم استحلفها بآيات جمالها ودلالها أن تصله ولا تجفوه ، وحثها على ذلك لكي يتغلب على عذوله .

وإجمالاً فإن شعراء الغزل الحسي في العصر العثماني لم يتركوا معنى من المعاني التقليدية إلا عالجوه وتركوا بصمة واضحة تشير إلى أيي التجديد التي أصابته ، هذا بالإضافة إلى ما ابتدعوه من معاني كما رأينا في النماذج السابقة .

بقي أن نشير في هذا المقام إلى اعتراف العديد من الشعراء أن هذا اللون من الغزل يخدش الوقار ، ويتنافى مع الخلق القويم وتعاليم الدين الحنيف ، من ذلك بعض القصائد والمقطوعات التي قالها عبد الرحمن بن عماد الدين(1) بعد أن تقدم به العمر ، ومنها قوله(2) :

---

(1) هو عبد الرحمن بن محمد عماد الدين بن محمد العمادي الدمشقي ، ولد سنة 978 هجرية ، ونشأ يتيماً ، اجتهد في طلب العلم حتى أصبح من ألمع علماء عصره ، اشتغل بالإفتاء ، والتأليف ، والتدريس بمدارس الشام ، توفي سنة 1051 هجرية . راجع : ريحانة الألبا 221/1 ، وخلاصة الأثر 380/2 .

(2) ريحانة الألبا 224/1 .

سَـــأَطْمِسُ آثَـــاراً هَـــوَايَ أَثَارَهَـــا   وَأَنْفضُ مِنْ ذَيْلِ التَّصَابِي غُبَارَهَـــا
لَقَدْ آنَ صَحْوِي مِنْ سُلافِ صَـبَابَةٍ   لَقَدْ طَالَ مَا خَامَرْتُ جَهْلاً خُمَارَهَا
هَجَرْتُ الهَوَى وَالزَّهْوَ حَتَّى اشْتِيَاقَه   وَطِيْبَ لَيَالِي اللَّهْوِ حَتَّى ادِّكَارَهَـــا
وَعَفَّيْتُ سُبْلَ الهَزْلِ بِالجِـدِّ مُقْلِعـاً   وَعِفْتُ مَـسَرَّاتٍ جَنَيْـتُ ثِمَارَهَـــا
أَثَامٍ كُفِيْتُ اليَـوْمَ بِـالتَّرْكِ شَـرَّهَا   لَعَلِّي غَداً فِي الحَشْرِ أُكْفَى شَرَارَهَا
قَطَفْتُ أَزَاهِيْرَ الصَّبَابَةِ فِي الـصِّبَا   وَقَدْ صَارَ عَاراً أَنْ أَشُمَّ عَرَارَهَـــا
فَلَوْ صَائِدَاتُ القَلْبِ أَقْـبَلْنَ كَالْمَهَـــا   وَقَبَّلْنَ رَأْسِي مَا قَبِلْـتُ مَزَارَهَـــا
وَقَدْ كُنْتُ أَوْدَعْتُ الحِجَا فَاسْـتَرَدَّهُ   إِلَى النَّفْسِ شَيْبٌ قَدْ أَعَادَ وَقَارَهَـــا
وَكَانَ شَبَابِي شَبَّ نَـارَ صَـبَابَتِي   فَمُذْ لاحَ نُوْرُ الشَّيْبِ أَخْمَدَ نَارَهَـــا

عبّر الشاعر في القصيدة السابقة عن موقفه الشخصي وموقف أهل عصره من شعر الغزل الحسيّ ، وهما موقفان منسجمان مع طبيعة العصر وروح التدين التي كانت سائدة فيه ، ومع ثقافة الشاعر وتدينه ، فهو الفقيه المفتي الذي قال هذا اللون من الشعر تصابياً وإثباتاً للمقدرة كما أظن ، كما هو حال الكثيرين من شعراء عصره([1]) .

وقد أكد أكثر من شاعر ما ذهبنا إليه في تعليل الاتجاه إلى الغزل الحسيّ ، من ذلك قول الحسن بن عليّ بن جابر([2]) :

تَغَزَّلْتُ حَتَّى قِيْـلَ أَخُـو هَـوًى   وَشَبَّبْتُ حَتَّى قِيْـلَ فَاقِـدُ أَوْطَـانِ
وَمَا بِيْ مِنْ عِشْقٍ وشَوْقٍ وَإِنَّمَـا   أَتَيْتُ مِنَ الـشِّعْرِ البَـدِيْعِ بِأَفْنَـانِ

([1]) انظر ما قاله مصطفى البابي الحلبي في هذا المعنى ، وكذلك قول نجيب الدين بن محمد بن مَكّـيّ . نفحة الريحانة 335/2 – 336 . وكذلك ما قاله الشاعر أحمد بن يوسف بن الحسين في تنافي الشيب مع شعر الغزل الحسي . الدر الطالع 88/1 .

([2]) نفحة الريحانة 557/3 .

يعترف الشاعر صراحة أنه لم يتغزل ويــشبب بــالمرأة تــصابياً ومجوناً ، بل هو الشعر وإثبات المقدرة والتمكن من جميع فنونه .

ثالثاً : الغزل بالغلمان :

لم يكن التغزل بالغلمان من ابتداع شعراء العصر المملوكي ، فقد نسبه المؤرخون لأبي نواس ومَن جاراه من شعراء الخمر والمجون في العصر العباسي ، الذين استجابوا للانفتاح الحضاري والثقافي الذي شهده مجتمعهم ، والذين عبروا عن انبهارهم بالمرأة الأجنبية التي تشبه الغلمان في ملبسها وقَصة شَعرها ، وتغزلوا بها وبمن تشبهت بها من النساء العربيات ، كما أولعوا بالغلمان وتغزلوا بهم .

أما شعراء العصر المملوكي فقد تغزل العديد منهم بالغلمان مجاراة للشعراء العباسيين ، وتقليداً لهم بهدف إظهار مقدرتهم الشعرية وتمكنهم من كل فنون الشعر التقليدية . يؤكد ذلك حرج بعض الشعراء من تغزلهم بالغلمان ، وتبريرهم هذا الغزل بمثل قول ابن الوردي([1]) :

مَا المُرْدُ أَكْبَرَ هَمِّي ... وَلاَ نِهَايَةَ عِلْمِي
ولَسْتُ مِنْ قَوْمِ لُوْطٍ ... حَاشَا تُقَايَ وَحُلْمِي
وإنَّمَا خَرْجُ دَهْرِي ... كَذَا فَنَفَقْتُ نَظْمِي

وقد أقسم ابن الوردي على صحة ما ذهبنا إليه في قوله([2]) :

وَاللهِ مَا المُرْدُ مُرَادِي وإن ... نَظَمْتُ فِيْهِمْ كَعُقُوْدِ الجُمَانِ
بَل كُلُّ مَنْ رَامَ نِفَاقَ الذي ... يَقُوْلُه يَنْظِم خَرْجَ الزمَانِ

وكذلك ما وجدناه من شعر الغزل بالغلمان لدى بعض الفقهاء والقضاة المشهود لهم بالتقوى والصلاح ، الذين لا يبرر تغزلهم بالغلمان

([1]) ديوان ابن الوردي 310 .

([2]) ديوان ابن الوردي 310 .

إلا بما ذهبنا إليه ، من ذلك قول فقيه حلب الشهاب المرعشي أحمد بن أبي بكر() في غلام كان يَسْبَحُ في الماء([1]) :

وَسَبُوْحٍ مَاءٍ لاَ يُدَارِي جِسْمَهُ كَظُهُوْرِ شَمْسٍ مِن وَرَا الأَفْلاَكِ
أَضْحَى يُوَارِي بِالتَمَرُّغِ نُورَهُ مُتَشَبِّهاً بِتَمَثُّلِ الأَفْلاكِ

وكذلك قول القاضي ابن خلكان متغزلاً في غلام مليح([2]) :

لَمَّا بَدَا العَارِضُ فِي خَدِّهِ بَشَّرْتُ قَلْبِي بِالنَّعِيْمِ المُقِيْمِ
وَقُلْتُ هَذَا عَارِضٌ ممطرٌ فَجَاءَنَا مِنْهُ العَذَابُ الأَلِيْمِ

وقد اجتهد شعراء هذا العصر في إظهار مقدرتهم على هذا اللون الشعري ، وبرعوا في تجديد معانيه ، من ذلك غزل أبي حيان الأندلسي([3]) في بعض الغلمان المشوهين الذين تأنف منهم النفس ، والاجتهاد في جعل قبحهم جمالاً ، ففي غلام أبرص قال([4]) :

وَقَالُوا الذِّي قَدْ صِرْتَ طَوْعَ جَمَالِهِ وَنَفْسُكَ لاَقَتْ فِي هَوَاهُ نِزَاعَهَا
بِهِ وَضَحٌ تَأْبَاهُ نَفْسُ أَخِي الحِجَا وَأَفْظَعُ دَاءٍ مَا يُنَافِي طِبَاعَهَا
فَقُلْتُ لَهُم لاَ عَيْبَ فِيْهِ يَشِيْنُهُ وَلاَ عِلَّةً فِيْهِ تَرُومُ دِفَاعَهَا
وَلَكِنَّمَا شَمْسُ الضُّحَى حِيْنَ قَابَلَتْ مَحَاسِنَهُ أَلْقَتْ عَلَيْهِ شُعَاعَهَا

([1]) در الحبب 177/1 .

([2]) الكوكب الثابت ص318 .

([3]) هو الشيخ الإمام العلامة أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن حيَّان الأندلسي ، نزيل مصر ، كان يُدّرس الناس في مصر مصنفات ابن مالك وسيبويه في النحو ، ومقدمة ابن الحاجب في الفقه ، وكان شاعراً بليغاً ، ولد سنة 654 وتوفي بالقاهرة سنة 745 هجرية ، وقد رثاه تلميذه الشيخ الأديب صلاح الدين الصفدي بقصيدة مؤثرة طويلة ... للاستزادة راجع ترجمته في : الكوكب الثابت 326 – 330 .

([4]) الكوكب الثابت 328 .

لقد برع الشاعر – أبو حيان الأندلسي – في إخفاء فتور عاطفته تحت بريق معانيه المبتكرة ، الأمر الذي لا يخفي ما يريده الشاعر من هذا الغزل ، فهو يهدف إلى تطبيب خاطر ذوي العاهات ، إضافة إلى إثبات مقدرته على الغزل بالغلمان مجاراة لأهل ذلك الزمان ، وإلاّ فكيف نبرر انصرافه عن الغلمان الأصحاء الملاح وتغزله في غلام أعمى([1]):

مَا ضَرَّ حُسْنُ الَّذِي أَهْوَاهُ أَنَّ سَنَا   كَرِيْمَتَيْهِ بِلاَ شَيْنٍ قَدِ احْتَجَبَا
قَدْ كَانَتَا زَهْرَتَي رَوْضٍ وَقَدْ ذَوَتَا   لَكِنَّ حُسْنَهُمَا الفَتَّانَ مَا ذَهَبَا
كَالسَّيْفِ قَدْ زَالَ عَنْهُ صَقْلُهُ فَغَدَا   أَنْكَى وَأَلَمَ فِي قَلْبِ الَّذِي ضُرِبَا
سَأَلَ البَدْرُ هَلْ تَبَدَّى أَخُوْهُ   قُلْتُ يَا بَدْرُ لَنْ تُطِيْقَ طُلُوعَا

لقد تغزّل شعراء هذا العصر بالصفات الحسية المعيبة ، وجعلوها ببراعتهم وحُسن تأويلهم آية من آيات الجمال ، فالشاعر ابن الخراط([2]) يذهب إلى ما ذهب إليه أبو حيان الأندلسي ، ويبرر بياضاً في شفة غلام ، فيقول([3]) :

لاَ وَالَّذِي صَاغَ فَوْقَ الثَّغْرِ خَاتَمَهُ   مَا ذَاكَ صَدْعُ بَيَاضٍ فِيْ عَقَائِقِهِ
وَإِنَّهَا البَرْقُ لِلتَّوْدِيْعِ قَبَّلَهُ   أَبْقَى بِهِ لَمْعَةً مِنْ نُوْرِ بَارِقِهِ

([1]) الكوكب الثابت 328 .

([2]) هو عبد الرحمن بن محمد بن سلمان المعروف بابن الخراط ، ولد بحماة ونشأ بحلب واشتغل بالفقه ، وتعاني الأدب ، باشر القضاء بحلب ، ثم تولى أمانة سرّ ديوان الإنشاء بطرابلس ، قطن القاهرة ، ثم تولى رئاسة ديوان الإنشاء ، وقال الشعر الرائق وطارح الأدباء ومدح الأكابر ومن مصنفاته المعاني اليتيمة والمثاني الرخيمة ، توفي سنة 840 هجرية . راجع ترجمته في : الضوء اللامع 4/ 130- 131 .

([3]) الضوء اللامع 131/4 .

كذلك وَجَدَ الغلمان السود من يتغزل بهم ، ويبدع في جعل هذ السواد مجمعاً لصفات الحُسن والجمال ، من ذلك قول الشاعر صفي الدين الحلي([1]) :

وَأغنَّ مِسْكِيِّ الإِهَابِ وَوَجْهُهُ ... يُبْدِي جَمَالاً زَانَهُ الإِشْرَاقُ
رَاقَ العيُوْنَ بِمَنْظَرٍ ذِي بَهْجَةٍ ... وَنَوَاظِرٍ مِنْهَا الدِّمَاءُ تُرَاقُ
فَكَأَنَّهُ لَمَّا تَكَامَلَ حُسْنُهُ ... وَرَنَتْ إِلَيْهِ بِطَرْفِهَا العُشَّاقُ
مِنْ فَرْطِ إِحْدَاقِ العيُوْنِ بِحُسْنِهِ ... خَلَعَتْ عَلَيْهِ سَوَادَهَا الأَحْدَاقُ

لقد حرص الشعراء الذين نظموا في هذا اللون على إثرائه ، وعلى الإبداع فيه والانفلات من إسار التقليد ، متخذين – غالباً – من الغلمان غير العرب مادة لإثراء معاني غزلهم ، من ذلك مثلاً قول جوبان القواس([2]) في الغزل بعيون الترك وقدودهم([3]) :

حَمَانَا التُّركُ وانْتَهَكُوا حِمَانَا ... وَلَيْسَ يَفِي التَّوَاصُلُ بِالصُّدُوْدِ
حَمَوْنَا بِالصَّوَارِمِ والعَوَالِي ... وَجَارُوا بِاللَّوَاحِظِ وَالقُدُودِ

وكذلك غزل صفي الدين الحلي بغلام تركي ، الذي يحشد فيه صفات الجمال المتوارثة ويخرجها بصورة جديدة ، نورد قوله([4]) :

أَوْضَحَتْ نَارُ خَدِّهِ لِلْمَجُوْسِ ... حُجَّةً فِي السُّجُوْدِ وَالتَّقْدِيْسِ
وَأَقَامَتْ لِلْعَاشِقِيْنَ دَلِيْلاً ... وَاضِحاً فِيْ جَوَازِ نَهْبِ النُّفُوْسِ

([1]) الديوان ص488

([2]) هو جوبان بن مسعود بن سعد الله ، أمين الدين الدنيسري القواس ، يسمى أيضاً رمضان ، اشتهر في دمشق بفن الزخرفة والكتابة على الخشب ، توفي في حدود سنة 680 للهجرة . انظر ترجمته في : فوات الوفيات 1/303 – 309 .

([3]) مسالك الأبصار 16/ 255 .

([4]) ديوان صفي الدين الحلّي 423 .

رَشَأٌ مِنْ جَـآذِرِ التُّـرْكِ ، لَكِـنْ   حَازَ إِرْثَ الجَمَالِ عَـنْ بَلْقِـيْسِ
لاَبِساً مِـنْ بَهَائِـهِ ثَـوْبَ بَـدْرٍ   وَمِنَ الْوَشْـيِ حُلَّـةَ الطَّـاوُوْسِ
حَمَلَ الكَـأْسَ فَاكْتَـسَتْ وَجْنَتَـاهُ   شَفَقاً مِـنْ شُـعَاعِهَا المَعْكُـوسِ
فَـشَهِدْنَا مِـنْ خَـدِّهِ وَسَـنَاهَا   كَيْفَ تُكْسَى البُدُورُ نُورَ الشُّمُوْسِ

ويجتهد الشاعر ابن أبي طرطور(1) في استخراج معنى جديد من اسم الغلام "يعقوب" الذي يتغزل فيه ، ساعياً إلى ستر حقيقة مشاعر المحبة تجاه هذا الغلام ، فقال إن الناس قد غلطوا في اسمه ، وأن اسمه يوسف وليس يعقوب ، ليستثمر صفات الحُسن التي اتصف بها يوسف الصديق ، واتخذ لنفسه اسم يعقوب ليستثمر ما أخبرنا به القرآن الكريم عن حبِّ يعقوب لابنه يوسف ، فقال(2) :

يَا مَلِيْحاً حَـازَ وَجْهـاً حَـسَناً   أَوْرَثَ الصَّبَّ البُكَا وَالحَزَنَـا(3)
غَلِطُوا فِي اِسْمِكَ إِذْ نَـادَوْا بِـهِ   يُوسُـفٌ أَنْـتَ وَيَعْقُـوْبُ أَنَـا

ومثله في استثمار معاني القرآن ، وتوظيف ألفاظه لتجديد معاني الغزل بالغلمان ، وإخراجها من دائرة إيحاءات الشذوذ التي اقترنت بها قول الشاب الظريف(4) :

لَوْ لَمْ تَكُنْ اِبْنَةُ العُنْقُودِ فِيْ فَمِـهِ   مَا كَانَ فِيْ خَدِّهِ القَانِي أَبُو لَهَبِ
تَبَّتْ يَدَا عَاذِلِي فِيْـهِ فَوَجْنَتُـهُ   حَمَّالَةُ الوَرْدِ لاَ حَمَّالَةَ الحَطَـبِ

---

(1) هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عليّ بن محمد ، المعروف بابن أبي طرطور ، أحد شعراء حماة المشهورين مدح الأكابر والأعيان في الشام ، توفي سنة 762 هجرية . راجع ترجمته في : النجوم الزاهرة 8/11 .

(2) النجوم الزاهرة 8/11 .

(3) الحزَن : الهمّ .

(4) ديوان الشاب الظريف 62 .

ولم يتوقف شعراء **العصر العثماني** عن مجاراة أسلافهم في العصور السابقة ، وإظهار مقدرتهم على جميع فنون القول ، ومنها الغزل بالغلمان ، وقد اجتهدوا في توليد المعاني ، وتصيُّد كل طريف منها ، وشواهد ذلك عديدة نذكر منها قول أحمد بن عبد الرحمن الوارثي([1]) في غلام اسمه بدر ([2]):

سَمَّوْهُ بَدْراً وَذَاكَ لَمَّا ... أَنْ فَاقَ فِي حُسْنِهِ وَتَمَّا
وَأَجْمَعَ النَّاسُ مُذْ رَأَوه ... بِأَنَّهُ اِسْمٌ عَلَى مُسَمَّى

ومثله قول جمال الدين الحسيني([3]) في غلام تركي اسمه إبراهيم([4]) :

ظَبْيٌ مِنَ التُّرْكِ قَاسٍ رُحْتُ أَسأَلُهُ ... وَصْلاً فَقَالَ مُجِيْباً مُذْ بِهِ بَخِلاَ
صُنْ مَاْءَ وَجْهِكَ عَنْ ذُلِّ السُّؤْالِ تَجِد ... طَرِيْقَ عِزٍّ بِبَحْرِ المَجْدِ مُتَّصِلاَ

وكذلك قول إبراهيم البتروني([5]) في مليح اسمه موسى([6]) :

كُلُّ فِرْعَوْنَ لَهُ مُوْسَى وَذَا ... فِي الهَوَى مُوْسَاكَ يُوْلِيْكَ النَّكَدْ
فَكَمَا أَكْمَدْتَ مَنْ يَهْوَاكَ بِالصَّـ ... ـدِّ مُتْ صَدًّا وَذُق طَعْمَ الكَمَدْ

([1]) هو الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن محمد الوارثي المصري الصديّقي ، المعروف بالوارثي الكبير المفسّر المحدث ، يعود نسبه إلى أبي بكر الصديق ، له اليد الطولى في غالب العلوم ، وله كتب ورسائل عديدة ، توفي سنة 1045 هجرية . راجع ترجمته في : خلاصة الأثر 234/1 – 236 .

([2]) خلاصة الأثر 236/1 .

([3]) هو جمال الدين بن نور الدين علي بن أبي الحسن الحسيني ، تعلم في دمشق ثم هاجر إلى مكة وجاور بها زمناً ، ثم انتقل إلى اليمن والهند وحيدر أباد ، وفي حيدر أباد حظي بمكانة رفيعة عند حاكمها ، توفي في حيدر أباد سنة 1098 هجرية . راجع : خلاصة الأثر 494/1 – 495 .

([4]) نفحة الريحانة 317/2 .

([5]) إبراهيم بن أبي اليمن بن عبد الرحمن البتروني ، أديب فاضل عمل في التدريس في مدينة حلب ، تولى العديد من المناصب في سلك القضاء ، توفي سنة 1053 هجرية . خلاصة الأثر 10/1 – 11 .

([6]) خلاصة الأثر 10/1 .

لقد سعى هؤلاء الشعراء الذين لم يشتهروا بالمجون والخلاعة إلى اصطياد كل معنى طريف يثبت قدرتهم على الغزل بالغلمان ، وفي هذا المقام نذكر ما غزل الشاعر الضرير ماجد بن ماجد([1]) في قارئ قرآن صوته جميل([2]) :

وَتَالٍ لآيِ الذِّكْرِ قَدْ وَقَفَتْ بِنَا ... تِلاوَتُهُ بَيْنَ الضَّلالَةِ وَالرُّشْدِ
بِلَفْظٍ يَسُوْقُ الزَّاهِدِيْنَ إِلَى الخَنَا ... وَمَعْنًى يَشُوْقُ العَاشِقِيْنَ إِلَى الزُّهْدِ

وقد لا تختلف معاني الغزل بالغلمان عن معاني الغزل الحسيّ كثيراً ، وأحياناً تلتبس بها إن لم تكن هنالك قرينة على أن المتغزل به غلام ، لأن الشعراء ذكروا الخال والشامة ، كما ذكروا الوجنة وتغنوا بجمالها ، والقوام ورشاقته .. وغير ذلك من المعاني الحسية التي رأيناها في الغزل بالمرأة ، فمن الشعر الذي اشتمل على قرينة نذكر قول أبي بكر الجوهري([3]) في غلام اسمه داود ، ورقيب اسمه عمرو([4]) :

أُفَدِّي غَزَالاً لَهُ خَالٌ بِوَجْنَتِهِ ... مَعْ عَارِضٍ شِبْهِ وَاوِ العَطْفِ مَمْدُوْدِ
كَأَنَّما الخَالُ فَوْقَ الخَدِّ يَحْرُسُهُ ... حِذَارَ سِرْقَةِ عَمْرٍو وَاوَ دَاوُدِ

([1]) هو أبو علي ماجد بن هاشم بن علي بن المرتضي بن علي بن ماجد الحسيني البحراني ، ولد بالبحرين ، وفقد بصره وهو صغير ، ولي قضاء البحرين ، ثم تقلد الإمامة والخطابة في شيزار ، وفيها توفي سنة 1028 هجرية . راجع : خلاصة الأثر 307/3 – 308 .

([2]) خلاصة الأثر 308/3 .

([3]) هو أبو بكر أحمد بن علاء الدين بن محمد بن عمر ، المعروف بالجوهري الشامي ، ولد في دمشق سنة 968 هجرية ، اشتغل بالتجارة وتنقل بين مصر والشام ، كان شاعراً مطبوعاً ، جمع من شعره ديواناً ، توفي بعد سنة 1030 هجرية بقليل . خلاصة الأثر 68/1 – 70 .

([4]) خلاصة الأثر 69/1 . وريحانة الألبا 167/1 .

ومن معاني الغزل بالغلمان التي تلتبس بالغزل بالمرأة قول عبد الحي بن علي بن محمود([1]) :

رُوَيْدَكَ يَا رَشِيْقَ القَدِّ يَا مَنْ ... بِمَعْسُوْلِ القَوَامِ لَنَا يُهَدِّدْ
فَقَدُّكَ حَطَّ غُصْنَ البَانِ حَتَّى ... بِأَعْلاهُ الجَمَالُ غَدَا يُعَدِّدْ

وكذلك ذكر العذول واستعارة بعض عناصر الطبيعة وسمات الخمر لوصف الغلمان والتغزل بهم ، كما هول الحال في الغزل الحسي بالمرأة ، كما في قوله([2]):

قَالَ العَوَاذِلُ مَنْ تَهْوَاهُ صِفْهُ لَنَا ... فَقُلْتُ غُصْنٌ وَمِنْ مَاءِ النَّعِيْمِ سُقِي
وَالخَمْرُ رِيْقَهُ مَنْ أَهْوَى وَعَارِضُه ... بَنَفْسَجٌ وَالقَوَامُ اللَّدْنُ مِنْهُ رُقِي

إلى غير ذلك من الشواهد التي نعفُ عن ذكرها .

وإجْمَالاً فقد مَجّ سواد الناس هذا اللون من الغزل ، وتصدى العديد من الشعراء للمتغزلين بالغلمان ، من ذلك قول عبد الرحمن ابن كثير المكيّ([3]) :

كِبَارُ زَمَانِنَا أَضْحَوْا صِغَاراً ... وَقَدْ غَضِبَ الزَمَانُ عَلَى الكِبَارِ
كَأَنَّ زَمَانَنَا مِنْ قَوْمِ لُوْطٍ ... لَهُ وَلَعٌ بِتَقْدِيْمِ الصِّغَارِ

لعلّ الشاعر يشير إلى الشعراء الذين تغزلوا في الغلمان مجاراة لغيرهم ، وإثباتاً لتمكنهم من الشعر وفنونه عامة ، وهو يصفهم بصفة الكبار لأن منهم الفقهاء والقضاة والأدباء المشهود لهم بالوقار والتدين .

([1]) هو عبد الحي بن علي بن محمد بن محمود الطالوي ، الشهير بالخال ، شاعر مطبوع قال في معظم فنون الشعر ، له شعر في المجون والهجاء كثير . توفي بدمشق سنة 1117 هجرية . ذيل نفحة الريحانة 138 .

([2]) ذيل النفحة 157 .

([3]) ريحانة الألبا 431/1 .

كذلك انتقاد أخيه علي بن كثير للذين يتبعون شهواتهم ، فيتغزلون بالغلمان ، ويتملقون السلطان .. وهم يعلمون أن ذلك حرام ، وذلك في قوله[1] :

صَحِبْتُ الأَنَامَ فَأَلْفَيْتُهُمْ　　وكُلٌّ يَمِيلُ إِلَى شَهْوَتِهْ
وكُلٌّ يُرِيْدُ رِضَى نَفْسِهِ　　وَيَجْلِبُ نَاراً إِلَى بُرْمَتِهْ[2]
فَلِلَّهِ دَرُّ فَتًى عَارِفٍ　　يُدَارِي الزَمَانَ عَلَى فِطْنَتِهْ
يُجَازِي الصَّدِيْقَ بِإِحْسَانِهِ　　وَيُبْقِي العَدوَّ إِلَى قُدْرَتِهْ
وَيَلْبَسُ للدَّهْرِ أَثْوَابَهُ　　وَيَرْقُصُ لِلْقِرْدِ فِيْ دَوْلَتِهْ

إلى غير ذلك من الشواهد التي يستنكر أصحابها الغزل بالغلمان ، والتي تمثل الذوق السائد في العصر العثماني .

([1]) ريحانة الألبا 432/1 .
([2]) البرمة : قِدرٌ من حجارة .

دار المقداد للطباعة
غزة – م. الشاطئ ت : 2821358